مكيـة كلها في قـول الحسن وعكرمـة وعطاء. وقـال ابن عبـاس وقتـادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة. وقال ابن سلام: بالجحفـة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة. وهي قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ وقال مـقاتل: فيـها من المدني ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ وهي ثمان وثمانون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿طسم﴾ تقدّم الكلام فيه. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ في موضع رفع بمعنى هذه تلك و﴿آيَاتُ﴾ بدل منها. ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ﴿نَتْلُو﴾ و﴿آيَاتُ﴾ بدل منها أيضاً؛ وتنصبـها كـما تقـول: زيداً ضربت. و﴿الْمُبِينِ﴾ أي المبين بركتـه وخيره، والمبـين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وقصص الأنبياء، ونبوّة محمد ﷺ. ويقال: بان الشيء وأبان اتضح. ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذكر قصـة موسى عليه السلام وفرعـون وقارون، واحتج على مشركي قريش، وبيّن أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره، وكذلك قرابة قريش لمحمد، وبين أن فرعون علا في الأرض وتجبّر، فكان ذلك من كفره، فليجتنب العلـوّ في الأرض، وكذلك التعزز بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون. ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ﴾ أي يقرأ عليك جبريل بأمرنا ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي من خبرهما و﴿مِن﴾ للتبعيض و﴿مِن نَّبَإِ﴾ مفعول ﴿نَتْلُو﴾ أي نَتْلو عليك بعض خبرهما؛ كقـوله تعالى: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. ومعنى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فـيه ولا كذب. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدّقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله؛ فأما من لم يؤمن فلا يعتقد أنه حق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي استكبـر وتجبّر؛ قاله ابن عـباس والسّدي[١]. وقال قتادة: علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادعى الربوبية [٢]. وقيل: بملكه وسلطانه فصار عالياً على

(١) موصول عن السدى بسند حسن: كما عند الطبري (٢٠/ ٢٨) في تفسيره.
(٢) صحيح إليه: ابن أبي حاتم (١١/ ٢٢٩) في تفسيره.

من تحت يده. ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي أرض مصر. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي فرقاً وأصنافاً في الخدمة. قال الأعشى:

وبلدة يَرْهَبُ الجوَّابُ دجلتَها ... حتى تراه عليها يَبْتَغي الشِّيَعَا

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ أي من بني إسرائيل. ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ تقدّم القول في هذا في «البقرة» عند قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] الآية؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه، أو قال المنجِّمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعبِّرت كذلك. قال الزجاج: العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع، وإن كذب فلا معنى للقتل. وقيل: جعلهم شيعاً فاستسخر كل قوم من بني إسرائيل في شغل مفرد. ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي في الأرض بالعمل والمعاصي والتجبر.

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي نتفضل عليهم وننعم. وهذه حكاية مضت. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قال ابن عباس: قادة في الخير (١). مجاهد: دعاة إلى الخير(٢). قتادة: ولاة وملوكاً (٣)؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠].

قلت: وهذا أعمّ فإن الملك إمام يؤتم به ويقتدى به. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لملك فرعون؛ يرثون ملكه، ويسكنون مساكن القبط. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي نجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولَى عليها؛ يعني أرض الشام ومصر. ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أي ونريد أن نري فرعون. وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف: ﴿وَنُرِيَ﴾ بالياء (٤) على أنه فعل ثلاثي من رأى ﴿فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ رفعا لأنه الفاعل. الباقون ﴿وَنُرِي﴾ بضم النون وكسر الراء على أنه فعل رباعي من أرى يُري، وهي على نسق الكلام؛ لأن قبله ﴿وَنُرِيدُ﴾ وبعده ﴿وَنُمَكِّنَ﴾. ﴿فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ نصباً بوقوع الفعل. وأجاز الفراء «وَيُرِيَ فِرْعَوْنَ» بضم الياء وكسر الراء وفتح الياء بمعنى ويري الله فرعون ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدي رجل من بني إسرائيل فكانوا على وجل «مِنْهُمْ» فأراهم الله ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾. قال قتادة: كان حَازياً لفرعون والحازي المنجم قال إنه سيولد في هذه السنة مولود يذهب بملكك؛ فأمر فرعون بقتل الولدان في تلك السنة. وقد تقدّم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ

(١) انظر: تفسير البغوي (٦/ ١٩٠) غير مسند.

(٢، ٣) السابق (٦/ ١٩٠)، وأبو حيان (٧/ ١٠٤) في البحر المحيط ورواه موصولاً، عن قتادة بلفظ (يرثون الأرض بعد فرعون وقومه) و (ولاة الأمر).

(٤) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥٦).

(٥) في إسناده نظر: الطبري (٢٠/ ٣٠) في تفسيره، ومثل هذه الروايات منقولة حرفيًا عن التوراة المحرفة.

وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ قد تقدّم معنى الوحي ومحامله. واختلف في هذا الوحي إلى أم موسى؛ فقالت فرقة: كان قولاً في منامها. وقال قتادة: كان إلهاماً [١]. وقالت فرقة: كان بمَلَك يمثّل لها. قال مقاتل: أتاها جبريل بذلك، فعلى هذا هو وحي إعلام لا إلهام. وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية [٢]، وإنما إرسال المَلَك إليها على نحو تكليم المَلَك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور؛ خرجه البخاري ومسلم، وقد ذكرناه في سورة «براءة» [٣]. وغير ذلك مما روي من تكليم الملائكة للناس من غير نبوّة، وقد سلمت على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبياً. واسمها أيارخا وقيل أيارخت فيما ذكر السهيلي. وقال الثعلبي: واسم أم موسى لوحا بنت هاند ابن لاوي بن يعقوب. ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وقرأ عمر بن عبد العزيز: «أَنِ ارْضِعِيهِ» بكسر النون وألف وصل؛ حذف همزة أرضع تخفيفاً ثم كسر النون لالتقاء الساكنين. قال مجاهد: وكان الوحي بالرضاع قبل الولادة [٤]. وقال غيره بعدها. قال السدي: لما ولدت أمّ موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتصنع به بما في الآية؛ لأن الخوف كان عقيب الولادة [٥]. وقال ابن جريج: أمرت بإرضاعه أربعة أشهر في بستان، فإذا خافت أن يصيح لأن لبنها لا يكفيه صنعت به هذا [٦]. والأوّل أظهر إلا أن الآخر يعضده قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ و«إِذَا» لما يستقبل من الزمان؛ فيروى أنها اتخذت له تابوتاً من بَرْدي وقيّرته بالقار من داخله، ووضعت فيه موسى وألقته في نيل مصر. وقد مضى خبره في «طه» [٧]. قال ابن عباس: إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي؛ فسلّط الله عليهم القبط، وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجاهم الله على يد موسى [٨]. قال وهب:

---

(١) صحيح: الطبري (٢٠/ ٣١) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٢٣٣) في تفسيره.

(٢) قلت: كونها غير نبية فمعروف، لكن أن يتمثل لها جبريل عليه السلام فهذا غير معتمد وذلك لعدم دلالة القرآن عليه، فإن الملائكة كلمت مريم عليها السلام كما في «آل عمران» وجاءها جبريل عليه السلام، كما في سورة «مريم» صرّح القرآن بذلك.

ثم لو أضفت ضميمة من السنة، وهو حديث البخاري (٣٦٨٩) في فضائل أصحاب النبي ﷺ عن أبي هريرة - رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «لقد كان في الأمم ناس محدثون، فإن يك في أمتي أحدٌ فإنه عمر».

وفي رواية: «من بني إسرائيل» وفيها «من غير أن يكونوا أنبياء فهذا يدل دلالة قاطعة على عدم تمثل جبريل عليه السلام أو كلامه لها، والأصل عندنا قيام الدليل على الأمر لفقدان الإسناد المتصل بيننا وبين الأمم السابقة والله أعلم، فإن لم يقم الدليل فالخبر باطل.

(٣) سبق عند الآية ٦٠.

(٤) هكذا عند الشوكاني في (٤/ ٢٢٥) في فتح القدير.

(٥) كذا عند الطبري (٢٠/ ٣٢) في تفسيره.

(٦) صحيح إليه: انظر السابق (٢٠/ ٣٢)، ومتنه منكر جداً.

قلت: ولا يصح إلا قول مجاهد لدلالة السياق عليه، ثم لأن هذا ما يتوافق مع طبائع البشر والله أعلم.

(٧) عند الآية (٣٩).

(٨) منقطع: البغوي (٦/ ١٩٠) في تفسيره، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

بلغني أن فـرعون ذبح في طلب موسـى سبعين ألف وليـد. ويقال: تسـعون ألفاً. ويـروى أنها حين اقتربت وضَربـها الطلق، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبـالى بني إسرائيل مصافية لـها؛ فقالت: لينفعني حُبُّك اليوم؛ فـعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيـه، وارتعش كل مَفْصِل منها، ودخل حبّه قلبها، ثم قالت: ما جئتكِ إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون، ولكني وجدت لابنك حبًا ما وجدت مثله قط، فاحفظيه؛ فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة ووضعته في تنّور مسجور ناراً لم تعلم مـا تصنع لما طاش عقلهـا، فطلبوا فـلم يلفوا شيئاً، فـخرجـوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنّور، وقد جعل الله عليه النار برداً وسلاماً [(١)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ فيه وجهان: أحدهمـا: لا تخافي عليه الغرق؛ قاله ابن زيد. الثاني: لا تخافي عليه الضيـعة؛ قاله يحيى بن سَلّام. ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ فيه أيضاً وجهـان: أحدهما: لا تحزني لفراقه؛ قاله ابن زيد [(٢)]. الثاني: لا تحـزني أن يقتل؛ قاله يحيى بن سَـلاّم. فقيل: إنها جـعلته في تابوت طوله خمسة أشبار وعرضه خمسـة أشبار، وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته في اليم بعد أن أرضعـته أربعة أشهـر. وقال آخرون: ثلاثة أشـهر. وقال آخـرون ثمانية أشهـر؛ في حكاية الكلبي. وحكي أنه لما فرغ النجار من صنعة التابوت نَمَّ إلى فرعون بخبره، فبعث معه من يأخذه، فطمس الله عينيه وقلبه فلم يعرف الطريق، فأيقن أنه المولود الذي يخاف منه فرعون، فآمن من ذلك الوقت؛ وهو مؤمن آل فرعون ؛ ذكره الماوردي [(٣)]. وقال ابن عباس: فلما توارى عنهـا ندّمها الشيطان وقالت في نفسها: لو ذبح عندي فكفنته وواريته لكان أحب إليّ من إلقائه في البحر [(٤)] ؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي إلى أهل مصر. حكى الأصمعيّ قال: سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول:

أستغفر الله لذنبي كـلِّه ... قَبَّلتُ إنساناً بغير حـلِّه

مثل الغزال ناعماً في دَلِّه ... فانتصف الليل ولم أصلِّه

فقلت: قاتلك الله ما أفصحك فقالت: أو يعدّ هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية؛ فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لما كان التقـاطهم إياه يؤدّي إلى كونه لهم عدواً وحزناً؛ فاللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ لام العاقبة ولام الصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرّة عين، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدواً وحزناً، فذكر الحال بالمآل؛ كما قال الشاعر:

وللمنايا تُربِّي كلُّ مُرْضِعةٍ ... ودُورُنا لخراب الدهر نَبْنِيها

---

(١) خبر باطل ولا دليل عليه .

(٢) حسن إليه أو صحيح : الطبري (٢٠/ ٣٠) في تفسيره ، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٢٣٥) .

(٣) هذا أيضًا باطل : النكت والعيون (٣/ ٢١٦، ٢١٧) ولا يقوم عـليه دليل ، فالرجل المؤمن هو من آل فرعون أي كان من الطبقة الحاكمة ، وبنو إسرائيل يعملون في المهن الشاقة كالتجارة وغيرها ، فكيف يستقيم الأمر ؟

(٤) حسن : ورجاله ثقات على كلام في (أصبغ بن زيد الجهني الورّاق) رواه ابن أبي حاتم (١١/ ٢٣٦) في تفسيره من طريق سعيد بن جبير ـ رحمه الله ، عن ابن عباس به.

وقال آخر:

فللموت تَغْدُو الوالداتُ سِخَالَهَا كما لخراب الدهر تُبنَى المساكنُ

أي فعاقبة البناء الخراب وإن كان في الحال مفروحاً به. والالتقاط وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة. والعرب تقول لما وجدته من غير طلب ولا إرادة: التقطه التقاطاً. ولقيت فلاناً التقاطاً. قال الراجز:

ومَنْهَلٍ وردتُه التقاطا

ومنه اللقطة. وقد مضى بيان ذلك من الأحكام في سورة «يوسف»[1] بما فيه كفاية. وقرأ الأعمش ويحيى والمفضل وحمزة والكسائي وخلف: «وَحُزْناً» بضم الحاء وسكون الزاي. والباقون بفتحهما واختاره أبو عبيد. وأبو حاتم قال التفخيم فيه. وهما لغتان مثل العَدَم والعُدْم، والسَّقَم والسُّقْم، والرَّشَد والرُّشْد. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وكان وزيره من القبط. ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي عاصين مشركين آثمين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ﴾ يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر، فأمرت بسوقه إليها وفتحه، فرأت فيه صبياً صغيراً فرحمته وأحبته؛ فقالت لفرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ أي هو قرّة عين لي ولك فـ﴿قُرَّتُ﴾ خبر ابتداء مضمر؛ قاله الكسائي. وقال النحاس: وفيه وجه آخر بعيد ذكره أبو إسحاق؛ قال: يكون رفعاً بالابتداء والخبر ﴿لا تَقْتُلُوهُ﴾ وإنما بَعُد لأنه يصير المعنى أنه معروف بأنه قرّة عين. وجوازه أن يكون المعنى: إذا كان قرّة عين لي ولك فلا تقتلوه. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿وَلَكَ﴾. النحاس: والدليل على هذا أن في قراءة عبد الله بن مسعود: «وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لاَ تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ». ويجوز النصب بمعنى لا تقتلوا قرةَ عين لي ولك. وقالت: ﴿لا تَقْتُلُوهُ﴾ ولم تقل لا تقتله فهي تخاطب فرعون كما يخاطَب الجبّارون؛ وكما يخبرون عن أنفسهم. وقيل: قالت: ﴿لا تَقْتُلُوهُ﴾ فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بني إسرائيل. ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ فنصيب منه خيراً ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه على ما تقدّم قالوا له إن غلاماً من بني إسرائيل يفسد ملكك؛ فأخذ بني إسرائيل بذبح الأطفال، فرأى أنه يقطع نسلهم، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً، فولد هارون في عام الاستحياء، وولد موسى في عام الذبح.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ هذا ابتداء كلام من الله تعالى؛ أي وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه. وقيل: هو من كلام المرأة؛ أي وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه، ولا يشعرون إلا أنه ولدنا. واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ فقالت فرقة: كان ذلك عند التقاطه التابوت لما أشعرت فرعون به؛ ولما أعلمته سبق إلى فهمه أنه من بني إسرائيل، وأن ذلك قصد به ليتخلص من الذبح فقال: عليّ بالذباحين؛ فقالت امرأته ما ذُكر؛ فقال فرعون: أمّا لي فلا. قال النبيّ ﷺ: «لو قال فرعون نعم لآمن بموسى ولكان قرّة عين له»[2] وقال السدّي: بل ربَّته حتى

---

(١) عند الآية (١٠).

(٢) وجدته في تفسير الطبري (٢٠/ ٣٥)، وابن أبي حاتم (١١/ ٢٣٩) ورفعه إلى ابن عباس بهذا الإسناد حسن.
قلت: ومما يؤيد ذلك أنه ضمن حديث الفتون وإن كان الألباني ضعفه كما عند النسائي (١١٣٢٦) في الكبرى.

دَرَج، فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بني إسرائيل وأخذه في يده، فمدّ موسى يده ونتف لحية فرعون، فهمّ حينئذ بذبحه (١)، وحينئذ خاطبته بهذا، وجربته له في الياقوتة والجمرة، فاحترق لسانه وعلق العقدةَ على ما تقدّم في «طه». قالَ الفرّاء: سمعت محمد بن مروان الذي يقال له السدّي يذكر عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: إنما قالت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ ثم قالت: ﴿تَقْتُلُوهُ﴾ (٢)قال الفرّاء: وهو لحن؛ قال ابن الأنباري: وإنما حكم عليه باللحن؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون؛ لأن الفعل المستقبل مرفوع حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم، فالنون فيه علامة الرفع. قال الفرّاء: ويقوّيك على ردّه قراءة عبد الله بن مسعود «وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لاَ تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ» بتقديم ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُ﴾.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجوني وأبو عبيدة: ﴿فَارِغًا﴾ أي خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى (٣). وقال الحسن أيضاً وابن إسحاق وابن زيد: ﴿فَارِغًا﴾ من الوحي (٤)إذ أوحي إليها حين أمرت أن تلقيه في البحر ﴿لا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي﴾ والعهد الذي عهده إليها أن يردّه ويجعله من المرسلين؛ فقال لها الشيطان: يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فغرّقتيه أنت ثم بلغها أن ولدها وقع في يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها. وقال أبو عبيدة: ﴿فَارِغًا﴾ من الغمّ والحزن لعلمها أنه لم يغرق؛ وقاله الأخفش أيضاً. وقال العلاء بن زياد: ﴿فَارِغًا﴾ نافراً. الكسائي: ناسياً ذاهلاً. وقيل: والهاً (٥)؛ رواه سعيد بن جبير. ابن القاسم عن مالك: هو ذهاب العقل؛ والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش، ونحوه

---

(١) حسن :لكن الخبر بلفظه وجدته منقولاً عن التوراة وقد سبق .

(٢) باطل :السدي كذاب ، وأبو صالح اعترف بفريته على ابن عباس ، وراجع: معاني القرآن (٢/ ٣٠٢) للفراء ـ رحمه الله .

(٣) ضعيف إلى ابن عباس ، والضحاك ،حسن إلى بقية القائلين : الطبري (٢٠/ ٣٧) في تفسيره.
وانظر لفظ المصنف في: تفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٢٤٢) .

(٤)كذا عند الطبري في تفسيره من طريق ابن زيد (٢٠/ ٣٧) .

(٥) حسن :فهو من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما كما في تفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٢٤٢) .

قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي جُوف لا عقـول لها كما تقـدّم في سورة «إبراهيم». وذلك أن القلوب مراكز العقـول؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] ويدل عليهـا قراءة من قرأ: «فَزِعـاً». النحاس: أصح هذه الأقوال الأول، والذين قـالوه أعلم بكتاب الله عز وجل؛ فـإذا كان فارغـاً من كل شيء إلا من ذكر مـوسى فهو فـارغ من الوحي. وقول أبي عبيدة فارغاً من الغم غلط قبيح؛ لأن بعده ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، وروى سعيد بن جبير عن ابن عبـاس قال: كادت تقول واابناه وقرأ فضالة بن عبيـد الأنصاري رضي الله عنه ومحمد ابن السَّمَيْـقَع وأبو العالية وابن محيصن: «فَـزِعاً» بالفاء والعين المهملة من الفزع؛ أي خـائفة عليه أن يقتل. ابن عبـاس: «قَرِعاً» بالقاف والراء والعين المهـملتين، وهي راجعة إلى قراءة الجـماعة ﴿فَارِغًا﴾ ولذلك قيل للرأس الذي لا شعـر عليه: أقرع؛ لفراغه من الشعـر. وحكى قطرب أن بعض أصحاب النبيّ ﷺ قرأ: «فِرْغاً» بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف، وهو كقولك: هدراً وباطلاً؛ يقال: دماؤهم بينهم فِـرْغ أي هدر؛ والمعنى بطل قلبها وذهب وبقـيت لا قلب لـها من شدّة ما ورد علـيها. وفي قولـه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وجهـان: أحدهما: أنها ألقـته ليلاً فـأصبح فؤادها في النهار فـارغاً. الثاني: أنها ألقته نهاراً ومعنى: ﴿أَصْبَحَ﴾ أي صار؛ كما قال الشاعر:

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد وأصبحت المدينة للوليد

قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ﴾ أي إنها كادت؛ فلما حذفت الكناية سكنت النون. فهي ﴿إِن﴾ المخففة ولذلك دخلت اللام في ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي لتظهر أمره؛ من بدا يبدو إذا ظهر. قال ابن عباس: أي تصيح عند إلقائه: واابناه[١]. السديّ: كادت تقول لما حُملت لإرضاعه وحضانته هو ابني[٢]. وقيل: إنه لما شَبَّ سمعت الناس يقولون مـوسى بن فرعون؛ فشق عليها وضـاق صدرها، وكادت تقول هو ابني. وقيل: الـهاء في ﴿بِهِ﴾ عائدة إلى الوحي تقديره: إن كانت لتبـدي بالوحي الذي أوحيناه إليها أن نردّه عليها. والأوّل أظهر. قال ابن مسعود: كادت تقول أنا أمه[٣]. وقال الفرّاء: إن كادت لتبدي بإسمه لضيـق صدرها. ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ قال قـتادة: بالإيمان[٤]. السـدّي: بالعصـمة[٥]. وقيل: بالصبر. والربط على القلب: إلـهـام الصبر. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من المصدّقين بوعد الله حين قال لـها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾. وقال: ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾ ولم يقل: لتبديه؛ لأن حـروف الصفات قد تزاد في الكلام؛ تقول: أخذت الحبل وبالحبل. وقيل: أي لتبدي القول به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي قالت أم موسى لأخت مـوسى: اتبعي أثره حتى تعلمي خبـره. واسمها مـريم بنت عمران؛ وافق اسـمها اسم مـريم أم عيسى عليـه السلام؛ ذكره السّـهيلي والثّعلبي. وذكـر الماوردي عن الضحـاك: أن اسمها كلـثمة. وقال السـهيلي: كلثـوم؛ جاء ذلك في

(١) حسن بمجموع طرقـه إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الطبري (٢٠/ ٣٨) في تفسيره من عدة طرق عن ابن عباس، ومن طريق مجاهد، وسعيد بن جبير، وابن أبي حاتم (١١/ ٢٤٣) من طريق عكرمة عنه بسند ضعيف.

(٢) حسن إليه أو صحيح: الطبري (٢٠/ ٣٧) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٢٤٤) في تفسيره.

(٣) السابق (٢٠/ ٣٧).

(٤) صحيح إليه: انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٣٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٢٤٤).

(٥) انظر السابق.

حديث رواه الزبير بن بكّار أن رسـول الله ﷺ قال لخديجة: «أشعـرت أن الله زوّجني معك في الجنة مريم بنت عمـران وكلثوم أخت موسى وآسية امرأة فـرعون» فقالت: الله أخبرك بهـذا؟ فقال: «نعم» فقالت: بالرفاء والبنين (١). ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ أي بعد (٢)؛ قاله مجاهد. ومنه الأجنبي.

قال الشاعر:

فَلاَ تَحْرِمَنِّي نَائِلاً عن جَنَابَةٍ فإنِّي امرؤٌ وسْطَ القِبابِ غَرِيبُ

وأصله عن مكان جنب. وقال ابن عـباس: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي عن جانب(٣). وقرأ النعـمان بن سالم: «عـن جانبٍ» أي عن ناحـية. وقيـل: عن شوق؛ وحكى أبو عـمرو بن العـلاء أنها لغـة لجذام؛ يقولون: جنبت إليك أي اشتقت. وقيل: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي عن مجانبة لها منه فلم يعـرفوا أنها أمه بسبيل. وقال قتادة: جـعلت تنظر إليه بناحية كأنها لا تريده، وكان يقـرأ: «عَنْ جَنْبٍ» بفتح الجيم وإسكان النون. ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي منعناه من الارتضاع من قبل؛ أي من قبل مجيء أمه وأخـته. و﴿الْمَرَاضِعَ﴾ جمع مُـرْضِع. ومن قال مـراضيع. فهـو جمع مِرضـاع، ومفـعال يكون للتكثـير، ولا تدخل الهاء فـيه فـرقاً بين المؤنث والمذكر لأنه لـيس بجارٍ على الفعـل، ولكن من قال مِرضاعة جاء بالهاء للمبالغة؛ كمـا يقال مِطرابة. قال ابن عباس: لا يؤتى بمرضع فيقبلها. وهذا تحريم منع لا تحريم شرع؛ قال امرؤ القيس:

جَالَتْ لِتصرعَني فقلت لها اقْصِرِي إنّي امرؤٌ صَرْعِي عليك حَرَامُ

أي ممتنع. فلما رأت أخته ذلك قالت: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ الآية. فقالوا لها عند قولها: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وما يدريك؟ لعلك تعرفين أهله؟ فـقالت: لا؛ ولكنهم يحرصون على مَسرّة الملك، ويرغـبون في ظِئْره (٤). وقال السّـدي وابن جُرَيج: قيل لهـا لما قالت: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ قد عرفت أهل هذا الصـبي فدلّينا عليهم؛ فقالت: أردت وهم للملك ناصـحون. فدلتهم على أم موسى، فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بهـا، والصبيّ على يد فرعون يعلّله شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضـاع، فدفـعه إليـها؛ فلمـا وجد الصبيّ ريـح أمه قبل ثـديها (٥). وقال ابن زيد: استرابوها حين قالت ذلك فقالت: وهم للـملك ناصحون. وقيل: إنها لما قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ وكانوا يبالغون في طلب مـرضعة يقبل ثديها فقالوا: من هي؟ فـقالت أمي؛ فقيل: لها لبن؟ قالت: نعم لبن هارون وكان ولد في سنة لا يقتل فيهـا الصبيان فقالوا صدقت والله. ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ أي فيهم شفقة ونصح؛ فروي أنه قيل لأم موسى حين ارتضع منها: كيف ارتضع منك ولم يرتضع من غيرك؟ فقالت: إني امرأة طيـبة الريح طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبيّ إلا ارتضع مني(٦).

---

(١) ضعيف: الهيثمي (٩/ ٢١٨) في مجمع الزوائد عن أبي روّاد.

(٢) صحيح إليه: الطبري (٢٠/ ٤١) في تفسيره.

(٣) حسن: من طريق حديث الفتون، ورواه ابن أبي حاتم (١١/ ٢٤٥) في تفسيره.

(٤) ظئره: مرضعته، وانظر: السابق (١١/ ٢٤٨).

(٥) انظر: الطبري (٢٠/ ٤٢) في تفسيره.

(٦) حسن إليه: انظر: السابق (٢٠/ ٤٢).

قال أبو عمران الجوني: وكان فرعون يعطي أمّ موسى كل يوم ديناراً[١]. قال الزمخشري: فإن قلت كيف حلّ لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها؟ قلت: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مالٌ حربيّ تأخذه على وجه الاستباحة[٢].

قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ أي رددناه وقد عطَف الله قلب العدوّ عليه، ووفينا لها بالوعد. ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي بولدها. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي بفراق ولدها. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي لتعلم وقوعه فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أكثر آل فرعون لا يعلمون؛ أي كانوا في غفلة عن التقدير وسرِ القضاء. وقيل: أي أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله في كل ما وعد حق.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قد مضى الكلام في الأشد في «الأنعام». وقول ربيعة ومالك: إنه الحُلُم أولى ما قيل فيه[٣]؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: ٦] فإن ذلك أوّل الأشد، وأقصاه أربع وثلاثون سنة؛ وهو قول سفيان الثوري[٤]. ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ قال ابن عباس: بلغ أربعين سنة. والحكم: الحكمة قبل النبوّة[٥]. وقيل: الفقه في الدين. وقد مضى بيانها في «البقرة» وغيرها. والعلم الفهم في قول السدي[٦]. وقيل: النبوّة. وقال مجاهد: الفقه. محمد بن إسحاق[٧]: أي العلم بما في دينه ودين آبائه؛ وكان له تسعة من بني إسرائيل يسمعون منه، ويقتدون به، ويجتمعون إليه، وكان هذا قبل النبوّة. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدّقت بوعد الله؛ فرددنا ولدها إليها بالتحف والطرف وهي آمنة، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوّة؛ وكذلك نجزي كل محسن.

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم (١١/ ٢٤٩) في تفسيره.
قلت: وهل كانت عملتهم الدينار ؟!.

(٢) الكشاف (٣/ ٥٩).

(٣) صحيح: ابن أبي حاتم (١١/ ٢٥٠) في تفسيره.

(٤) حسن إليه: السابق (١١/ ٢٥٠).

(٥) حسن إليه بمجموع طرقه: السابق (١١/ ٢٥٠).

(٦، ٧) الطبري في تفسيره (٢٠/ ١٤٤) وقد سبق ذلك كله.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق في دينه، عاب ما عليه قوم فرعون؛ وفشا ذلك منه فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً مستخفياً. وقال السدي [١]: كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يدعى موسى ابن فرعون؛ فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف قال مقاتل على رأس فرسخين من مصر ثم علم موسى بركوب فرعون، فركب بعده ولحق بتلك القرية في وقت القائلة، وهو وقت الغفلة؛ قاله ابن عباس. وقال أيضاً: هو بين العشاء والعَتَمة [٢]. وقال ابن إسحاق: بل المدينة مصر نفسها.

وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوماً على حين غفلة من أهلها [٣]. قال سعيد بن جبير وقتادة: وقت الظهيرة والناس نيام[٤]. وقال ابن زيد: كان فرعون قد نابذ موسى وأخرجه من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره، وبُعْد عهدهم به، وكان ذلك يوم عيد[٥]. وقال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه من قتل الرجل من قبل أن يؤمر بقتله، فاستغفر ربه فغفر له. ويقال في الكلام: دخلت المدينة حين غفل أهلها، ولا يقال: على حين غفل أهلها؛ فدخلت ﴿عَلَىٰ﴾ في هذه الآية لأن الغفلة هي المقصودة؛ فصار هذا كما تقول: جئت على غفلة، وإن شئت قلت: جئت على حين غفلة، وكذا الآية.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ والمعنى؛ إذا نظر إليهما الناظر قال هذا من شيعته؛ أي من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي من قوم فرعون. ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي طلب نصره وغوثه، وكذا قال في الآية بعدها: ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يستغيث به على قبطيّ آخر. وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها على الأمم، وفرض في جميع الشرائع. قال قتادة: أراد القبطيّ أن يُسخِّر الإسرائيلي ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه، فاستغاث بموسى [٦]. قال سعيد بن جبير: وكان خبازاً لفرعون[٧]. ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ قال قتادة: بعصاه[٨]. وقال مجاهد: بكفه[٩]؛ أي دفعه. والوكز واللَّكْز واللَّهْز واللَّهْد بمعنى واحد، وهو الضرب بجُمْع الكفّ مجموعاً كعقد ثلاثة وسبعين. وقرأ ابن مسعود: «فَلَكَزَهُ». وقيل: اللَّكْز في اللحى والوكز على القلب. وحكى الثعلبي أن في مصحف عبد الله بن مسعود «فَنَكَزَهُ» بالنون والمعنى واحد. وقال الجوهري عن أبي عبيدة: اللكز الضرب بالجُمْع على الصدر. وقال أبو زيد: في

---

(١) حسن: وقد سبق، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٢٥٢)، وهو صحيح إلى ابن عباس.
(٢) ضعيف: الطبري (٢٠/ ٤٥) في تفسيره، عن عطاء الخراساني.
(٣) تفسير الطبري (٢٠/ ٤٥).
(٤، ٥) مرسلان: وفي الإسناد إلى ابن جبير الأعمش وهو مدلس، وانظر: الطبري (٢٠/ ٤٦) في تفسيره.
(٦) ذكره البغوي (٦/ ١٩٧) دون عزو لقتادة ـ رحمه الله، وانظر: النكت والعيون (٣/ ٢٢١).
(٧) فيه الأعمش، عن سعيد بن جبير، والأعمش مدلس: ابن أبي حاتم (١١/ ٢٢٥) في تفسيره.
(٨، ٩) صحيحان: تفسير الطبري (٢٠/ ٤٧)، وابن أبي حاتم (١١/ ٢٥٥) في تفسيره.

جميع الجسد، واللهز: الضرب بجُمْع اليد في الصدر مثل اللَّكْز؛ عن أبي عبيدة أيضاً. وقال أبو زيد: هو بالجُمْع في اللَّهازِم والرقبة؛ والرجل مِلْهَز بكسر الميم. وقال الأصمعي: نكَزه؛ أي ضربه ودفعه. الكسائي: نَهزَه مثل نَكَزه ووكَزَه، أي ضربه ودفعه. ولَهَده لَهْداً أي دفعه لذلّه فهو ملهود؛ وكذلك لَهَّده؛ قال طَرَفة يذمّ رجلاً:

بطيء عن الدّاعي سريعٌ إلى الخنا ذَلُول بأجماعِ الرجالِ مُلَهَّدِ

أي مُدفَّع وإنما شدّد للكثرة. وقالت عائشة رضي الله عنها: فلهَدَني تعني النبي ﷺ لَهْدة أوجعني؛ خرجه مسلم[1]. ففعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه، وهو معنى: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾. وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه فقد قضيت عليه. قال جرير:

قَدْ عَضَّهُ فَقَضَى عليه الأَشْجَعُ

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي من إغوائه. قال الحسن: لم يكن يحلّ قتل الكافر يومئذ في تلك الحال؛ لأنها كانت حال كفّ عن القتال. ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ خبر بعد خبر. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ ندم موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه. قال قتادة: عرف والله المخرج فاستغفر؛ ثم لم يزل ﷺ يعدد ذلك على نفسه، مع علمه بأنه قد غفر له، حتى أنه في القيامة يقول: إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها. وإنما عدده على نفسه ذنباً[2]. وقال: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ من أجل أنه لا ينبغي لنبيّ أن يقتل حتى يؤمر، وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم. قال النقاش: لم يقتله عن عمد مريداً للقتل، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه. قال وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوّة. وقال كعب: كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة، وكان قتله مع ذلك خطأ؛ فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل[3]. وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال: يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة، وأركبكم للكبيرة سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من هاهنا» وأومأ بيده نحو المشرق «من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾» [طه: ٤٠][4].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي من المعرفة والحكم والتوحيد ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي عوناً للكافرين. قال القشيري: ولم يقل بما أنعمت عليّ من المغفرة؛ لأن هذا قبل

(١) صحيح: مسلم (٩٧٤/ ١٠٢) في الجنائز ضمن حديث طويل، عن عطاء بن يسار، عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) صحيح إليه: الطبري (٢٠/ ٤٨) في تفسيره.
(٣) خبر كعب من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، وقوله: (ابن اثنتي عشرة سنة) دليل على فساد هذه الرواية التي تخالف ما ذكره الله تعالى إذ قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾.
(٤) صحيح: مسلم (٢٩٠٥) في الفتن وأشراط الساعة.

الوحي، وما كـان عالماً بأن الله غفر له ذلك القـتل. وقال الماوردي: ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فيه وجـهان: أحدهما: من المغفرة؛ وكذلك ذكر المهدوي والثعلبي. قال المهدوي: ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من المغفرة فلم تعاقبني. الوجه الثاني: من الهداية.

قلت: قوله ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ يدلّ على المغفرة؛ والله أعلم.

قال الزمخشري قوله تعالى: ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يجوز أن يكون قَسَماً جوابه محذوف تقديره أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبنّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وأن يكون استعطافاً كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة فلن أكون إن عصمـتني ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته. وتكثـير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون؛ وإما بمظاهرة مـن أدّت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيليّ المؤدّية إلى القتـل الذي لم يحلّ له قتله. وقـيل: أراد إني وإن أسأت في هذا القـتل الذي لم أومر بـه فلا أترك نصـرة المسلمين على المجرمين، فـعلى هذا كان الإسـرائيلي مؤمنا ونـصرة المؤمن واجـبة في جمـيع الشرائع. وقـيل في بعض الروايات: إن ذلك الإسرائيلي كان كافـراً، وإنما قيل له إنه من شيـعته لأنه كان إسرائيلياً ولم يرد الموافـقة في الدين، فعلى هذا ندم لأنه أعان كافراً على كافـر، فقال: لا أكون بعدها ظهيـراً للكافرين. وقيل: ليس هذا خبـراً بل هو دعاء؛ أي فلا أكون بعد هذا ظهـيراً؛ أي فلا تجعلني يا رب ظهيراً لـلمجرمين. وقال الفراء: المعنى؛ اللهم فلن أكون ظهـيراً للمجرمين؛ وزعم أن قوله هذا قول ابن عباس. قال النحاس: وأن يكون بمعنى الخـبر أولى وأشبه بنسق الكلام؛ كما يقال: لا أعصيك لأنك أنعمت عليّ؛ وهذا قول ابن عباس على الحـقيقة لا ما حكاه الفراء؛ لأن ابن عباس قال: لم يستثن فابتلي من ثاني يوم[١] ؛ والاستثناء لا يكون في الدعاء، لا يقال: اللهم اغفر لي إن شئت؛ وأعجب الأشياء أن الفراء روى عن ابن عباس هذا ثم حكى عنه قوله.

قلت: قد مضى هذا المعنى ملخصاً مبيّنـاً في سورة «النمل» وأنه خبر لا دعاء. وعن ابن عباس: لم يستثن فابتلي به مرة أخرى؛ يعني لم يقل فلن أكون إن شاء الله. وهذا نحو قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ١١٣].

الثانية: قال سلمة بن نُبَيط: بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعطاء أهل بخارى وقال: أعطهم؛ فقال: اعفني؛ فلم يزل يستعفيـه حتى أعفاه. فقيل له ما عليك أن تعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئاً؟ وقال: لا أحب أن أعين الظلمة على شيء من أمرهم. وقال عبيد الله بن الوليد الوَصّافي قلت لعطاء بن أبي رَبَاح: إن لي أخـاً يأخذ بقلمـه، وإنما يحسب مـا يدخل ويخرج، وله عـيال ولو ترك ذلك لاحتاج وادّانَ؟ فقال: مَن الرأس؟ قلت: خالد بن عبد الله القَسْري؛ قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[٢] قال ابن عباس: فلم يسـتثن فابتلي به ثانية فأعانه الله[٣]، فلا يعينهم أخوك فإن الله يعينه قال عطاء: فلا يحلّ لأحد أن يعين ظالماً ولا يكتب له

(١) ذكره البغوي (٦/ ١٩٨) في تفسيره معلقًا غير مسند.

(٢) ضعيف: ابن أبي حاتم (١١/ ٢٥٨) في تفسيره والوصافي: ضعفوه.

(٣) سبق تخريجه.

ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين. وفي الحديث: «ينادي مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاَقَ لهم دَوَاة أو بَرَى لهم قلماً فيُجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم»(١). ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته، ثبّت الله قدميه على الصراط يوم القيامة يوم تزل فيه الأقدام ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزلّ الله قدميه على الصراط يوم تَدْحَض فيه الأقدام»(٢). وفي الحديث: «من مشى مع ظالم فقد أجرم» (٣) فالمشي مع الظالم لا يكون جرماً إلا إذا مشى معه ليعينه، لأنه ارتكب نهي الله تعالى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ قد تقدم في «طه» وغيرها أن الأنبياء صلوات الله عليهم يخافون؛ ردا على من قال غير ذلك، وأن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه؛ فقيل: أصبح خائفاً من قتل النفس أن يؤخذ بها (٤). وقيل: خائفاً من قومه أن يسلموه. وقيل: خائفاً من الله تعالى. ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ قال سعيد بن جبير: يتلفت من الخوف(٥). وقيل: ينتظر الطلب؛ وينتظر ما يتحدّث به الناس. وقال قتادة: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي يترقب الطلب(٦). وقيل: خرج يستخبر الخبر ولم يكن أحد علم بقتل القبطي غير الإسرائيلي. و«أَصْبَحَ» يحتمل أن يكون بمعنى صار؛ أي لما قتل صار خائفاً. ويحتمل أن يكون دخل في الصباح؛ أي في صباح اليوم الذي يلي يومه. و﴿خَائِفًا﴾ منصوب على أنه خبر «أصبح»، وإن شئت على الحال، ويكون الظرف في موضع الخبر. ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلّصه بالأمس يقاتل قبطياً آخر أراد أن يسخره. والاستصراخ الاستغاثة. وهو من الصراخ؛ وذلك لأن المستغيث يصرخ ويصوّت في طلب الغَوْث. قال [سلامة بن جندل]:

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فزِعٌ   كَانَ الصُّراخُ له قرعَ الظَّنَابِيب

قيل: كان هذا الإسرائيليّ المستنصر السامريّ استسخره طباخ فرعون في حمل الحطب إلى المطبخ؛ ذكره القشيري. و﴿الَّذِي﴾ رفع بالابتداء و﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ في موضع الخبر. ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال. وأمس لليوم الذي قبل يومك، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين. ومنهم من يبنيه وفيه الألف واللام. وحكى سيبويه وغيره أن من العرب من يجري أمس مجرى ما لا ينصرف في موضع الرفع خاصة، وربما اضطر الشاعر ففعل هذا في الخفض والنصب؛ قال الشاعر:

لقد رأيتُ عجباً مُذْ أَمْسَا

فخفض بمذ ما مضى واللغة الجيدة الرفع، فأجرى أمس في الخفض مجراه في الرفع على اللغة

(١) ضعيف: أورده الذهبي (ص٢٨٠) في الكبائر مقطوعًا على مكحول.

(٢، ٣) ضعيفان جدًا: وطرف الأول عند الديلمي (٥٧٠)، عن معاذ، والثاني (٥٧٠٩) وضعفه الألباني جدًا في الضعيفة (٧٥٨)، عن أوس بن شرحبيل مرسلاً بنحوه.

(٤) حسن من قول ابن عباس رضي الله عنهما: تفسير الطبري (٢٠/ ٤٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٢٥٩).

(٥) فيه الأعمش وعنعنته وهو مدلس: تفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٢٦٠).

(٦) صحيح إليه: ابن أبي حاتم (١١/ ٢٦٠) في تفسيره، والطبري (٢٠/ ٤٩) في تفسيره.

الثانية. ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ والغويّ الخائب؛ أي لأنك تشادّ من لا تطيقه. وقيل: مضلّ بيّن الضلالة؛ قتلت بسببك أمس رجلاً، وتدعوني اليوم لآخر. والغويّ فعيل من أغوى يُغوي، وهو بمعنى مُغوٍ؛ وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجع والمؤلم. وقيل: الغويّ بمعنى الغاوي. أي إنك لغويّ في قتال من لا تطيق دفع شره عنك. وقال الحسن(١): إنما قال للقبطيّ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ في استسخار هذا الإسرائيليّ وهمّ أن يبطش به. يقال: بَطَش يَبطُش ويبطِش والضم أقيس لأنه فعل لا يتعدى. ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ قال ابن جرير. أراد موسى أن يبطش بالقبطيّ فتوهم الإسرائيليّ أنه يريده؛ لأنه أغلظ له في القول؛ فقال: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ فسمع القبطيّ الكلام فأفشاه(٢). وقيل: أراد أن يبطش الإسرائيليّ بالقبطيّ فنهاه موسى فخاف منه؛ فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾. ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي ما تريد. ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي قتّالاً؛ قال عكرمة والشعبي: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين بغير حق(٣). ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أي من الذين يصلحون بين الناس.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون(٤)؛ ذكره الثعلبيّ. وقيل: طالوت؛ ذكره السهيليّ. وقال المهدويّ عن قتادة: شمعون مؤمن آل فرعون(٥). وقيل: شمعان(٦)؛ قال الدَّارَقُطْنِيّ: لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون. وروي أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخبر؛ فـ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي يتشاورون في قتلك بالقبطيّ الذي قتلته بالأمس. وقيل: يأمر بعضهم بعضاً. قال الأزهريّ: ائتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضاً؛ نظيره قوله: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦] وقال النمر بن تولب:

أرى الناسَ قد أحدثوا شيمةً وفي كل حادثة يُؤْتَمَرْ

﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي ينتظر الطلب. ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وقيل: الجبار الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن. وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى.

(١) انظر: البغوي (٦/ ١٩٨) في تفسيره غير مسند.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم (١١/ ٢٦١) في تفسيره، عن ابن عباس من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس ضمن حديث الفتون.

(٣) حسن إليهما: الطبري (٢٠/ ٥١) في تفسيره.

قلت: ولم يصرح القرآن بأن المتحدث هو الإسرائيلي إنما سمع المصري الحديث بين موسى والإسرائيلي فوصله بحادثة القتل ففهم أن لموسى علاقة بالقتل والقتيل، والله أعلم.

(٤ ـ ٦) انظر: النكت والعيون (٣/ ٢٢٣)، والمحرر الوجيز (١٢/ ١٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لما خرج موسى عليه السلام فاراً بنفسه منفرداً خائفاً، لا شيء معه من زاد ولا راحلة ولا حذاء نحو مدين، للنّسب الذي بينه وبينهم؛ لأن مدين من ولد إبراهيم، وموسى من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق، وخلوه من زاد وغيره، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وهذه حالة المضطر.

قلت: روي أنه كان يتقوّت ورق الشجر، وما وصل حتى سقط خُفّ قدميه. قال أبو مالك: وكان فرعون وجّه في طلبه وقال لهم: اطلبوه في ثنيات الطريق، فإن موسى لا يعرف الطريق. فجاءه ملك راكباً فرساً ومعه عنزة، فقال لموسى: اتبعني فاتبعه فهداه إلى الطريق، فيقال: إنه أعطاه العَنَزة فكانت عصاه. ويروى أن عصاه إنما أخذها لرعي الغنم من مدين. وهو أكثر وأصح. قال مقاتل والسّدي: إن الله بعث إليه جبريل [١]؛ فالله أعلم. وبين مدين ومصر ثمانية أيام [٢]؛ قاله ابن جبير والناس. وكان مُلْك مدين لغير فرعون.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة [٣]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أي بلغها. وورود الماء معناه بلغه لا أنه دخل فيه. ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول في المورود، وقد تكون بمعنى الإطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل. فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه؛ ومنه قول زهير:

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمَامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

(١) الطبري (٢٠/ ٥٤) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٢٦٦) في تفسيره.

(٢) هذا قول ابن عباس في حديث الفتون بسند حسن: انظر السابق.

(٣) في المطبوعات: «فيه أربع وعشرون مسألة»، والصواب «ثلاث وعشرون» كما هو مذكور في أصل الكتاب.

وقد تقدّمت هذه المـعاني في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. ومدين لا تنصرِف إذ هي بلدة معروفة.

قال الشاعر:

رُهبانُ مدينَ لو رأوكِ تَنَزَّلُوا والعُصْمُ من شَعَفِ الجبالِ الفَادِرِ

وقيل: قبـيلة من ولد مدين بن إبراهيم؛ وقد مـضى القول فيه في «الأعـراف». والأمة: الجمع الكثير. و﴿يَسْقُونَ﴾ معناه ماشيتهم. و﴿مِن دُونِهِمُ﴾ معناه ناحية إلى الجهة التي جاء منها، فوصل إلى المرأتين قبل وصولـه إلى الأمّة، ووجـدهما تذودان ومعناه تمنعان وتحبسـان، ومنه قولـه عليه السلام: «فلَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي»(١) وفي بعض المصاحف: «امرأتين حابستين تذودان» يقال: ذاد يذود إذا حبس. وذُدت الشيء حبسته؛ قال الشاعر:

أَبيت على باب القَوَافي كأنَّمَا أَذُودُ بها سِرْباً من الوحشِ نُزَّعَا

أي أحبس وأمنع. وقيل: «تَذُودَانِ» تطردان؛ قال [جرير]:

لقد سَلبتْ عصاك بنو تميم فما تَدْرِي بأيِّ عصاً تَذُودُ

أي تطرد وتكفّ وتمنع. ابن سلام: تمنعان غنمهما لئـلا تختلط بغنم الناس؛ فحذف المفعول: إما إيهاماً على المخـاطب، وإما استغناء بعلمـه. قال ابن عباس: تذودان غنمـهما(٢) عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء(٣). قتادة: تذودان الناس عن غنمهما؛ قال النحاس: والأوّل أولى؛ لأن بعده ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناس لم تخبرا عن سـبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرعاء. فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي شأنكما؛ قال رؤبة:

يا عَجباً ما خَطْبُه وخَطبِي

ابن عطية: وكان استعمال السؤال بالخَطْب إنما هو في مصاب، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شر؛ فـأخبرتاه بخبرهما، وأن أباهما شيخ كـبير؛ فالمعنى: لا يستطيع لضـعفه أن يبـاشر أمر غنمـه، وأنهما لضعـفهمـا وقلة طاقتهمـا لا تقدران على مزاحـمة الأقوياء، وأن عادتهما التأنّي حتى يُصـدِر الناسُ عن الماء ويخلى؛ وحينئذ تَرِدان. وقرأ ابن عامر وأبو عمـرو: «يَصْدُرَ»(٤) من صَدَرَ، وهو ضـد وَرَدَ أي يرجع الرِّعاء. والبـاقون ﴿يُصْدِرَ﴾ بضم الياء من أصدر؛ أي حـتى يصدروا مـواشيهم من وِردهم. والـرِّعاء جمع راع؛ مـثل تاجر وتِجـار، وصاحب وصِحاب. قالت فرقة: كانت الآبار مكشوفـة، وكان زحْم الناس يمنعهما، فلما أراد موسى أن يسقي لـهمـا زَحَم الناس وغلبهم على الماء حـتى سقى، فـعن هذا الغَلَب الذي كان منه وصـفته إحـداهما بالقوّة. وقالت فرقة: إنهما كانتا تتبعان فُضَالتهم في الصّهاريج، فإن وجدتا في الحوض بقية كان ذلك سقيهما، وإن لم يكن فيه بقية عطشت غنمهما، فرَقَّ لـهما موسى، فعمد إلى بئر كانت مغطّاة والناس

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) حسن: من طريق حديث الفتون، ومنقطع من طريق علي بن أبي طلحة. الطبري (٢٠/ ٥٧) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٢٦٩) في تفسيره.

(٣) صحيح إليه: الطبري (٢٠/ ٥٧) في تفسيره.

(٤) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥٦).

يسقـون من غيرها، وكان حَـجَرها لا يرفعه إلا سـبعة، قـالـه ابن زيد. ابن جريج: عشرة. ابن عـباس: ثلاثون. الزجاج: أربعون؛ فرفعـه. وسقى للمرأتين؛ فعن رفع الصخرة وصفتـه بالقوّة. وقيل: إن بئرهم كانت واحـدة، وأنه رفع عنها الحجر بعـد انفصال السقـاة، إذا كانت عادة المرأتين شرب الـفضلات. روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما استقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال، فجاء موسى فاقتلعها واستقى ذَنُوباً واحداً لم تحتج إلى غيره فسقى لـهما (١).

الثانية: إن قيل كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب ﷺ أن يرضى لابنيته بسقي الماشية؟ قيل له: ليس ذلك بمحظور والدين لا يأباه؛ وأمـا المروءة فالناس مـختلفون فـي ذلك، والعادة متـباينة فـيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البـدو غير مذهب الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ إلى ظل سَمُرَة؛ قـاله ابن مسعود. وتعـرض لسؤال ما يطعمه بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وكان لم يذق طعاماً سـبعة أيام، وقد لصق بطنه بظهره؛ فتعرض بالدعاء ولم يصرح بسـؤال؛ هكذا روى جميع المفسـرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله؛ فالخـير يكون بمعنى الطعـام كمـا في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كمـا قال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] ويكون بمعنى القوّة كما قال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان: ٣٧] ويكون بمعنى العبادة كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣] قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، واخضرّ لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله (٢). ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدميه. وفي هذا معتبر وإشعار بهوان الدنيا على الله. وقال أبو بكر بن طاهر في قوله: ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي إني لما أنزلت من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنيني بك عمن سواك.

قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ في هذا الكلام اختصار يدلّ عليه هذا الظاهر؛ قدّره ابن إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما سـريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهـما، فأمر الكبرى من بنتيه وقـيل الصغرى أن تدعوه له، ﴿فَجَاءَتْ﴾ على ما في هذه الآية. قال عـمرو بن ميمـون: ولم تكن سَلْفَعاً (٣) من النساء، خَـرّاجة وَلّاجة (٤). وقيل: جـائته ساترة وجـهها بكم درعـها (٥)؛ قاله عـمر بن الخطاب. وروي أن اسم إحداهمـا ليا والأخرى صـفوريا ابنتا يثرون، ويـثرون هو شعيب عليـه السلام. وقيل: ابن أخي شـعيب (٦)، وأن

---

(١) إسناده رجاله ثقات: تفـسير ابن أبي حاتم (١١/ ٢٧٢)، ورواه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٣٤) في المصنف، وعزاه السيوطي (٥/ ٢٣٧) في الدر لعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه.

(٢) حسن: الطبري (٢٠/ ٦٠) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٢٧٠) في تفسيره.

(٣) السلفع: الجريئة من النساء على الرجال. النهاية (٢/ ٣٩٠) لابن الأثير.

(٤) ولّاجة: كثيرة الولوج والخروج. اللسان «ولج».

(٥) صحيح إلى عمر وإلى عمرو بن ميمون: الطبـري (٢٠/ ٦٢) في تفـسيره، وصححـه ابن كثير (٥/ ١٠٩) في تفسيره إلى عمر ـ رضي الله عنه.

(٦) لم يثبت أنه شعيب عليه السلام واسم البنتين من طريق شعـيب الجبائي وهو كـذاب، كما في تـفسير الطبـري =

شعيباً كـان قد مات. وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعـيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن [١] ، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] كذا في سورة «الأعراف» وفـي سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧] قال قتادة: بعث الله تعالى شعـيباً إلى أصحاب الأيكـة وأصحاب مدين. وقد مـضى في «الأعراف» الخلاف في اسم أبيه. فروي أن مـوسى عليه السلام لما جاءتـه بالرسالة قام يتبـعها، وكان بين موسى وبين أبـيها ثلاثة أميال، فهبت ريح فضمت قـميصها فوصفت عجيزتها، فتحـرّج موسى من النظر إليها فقال: ارجعي خلفي وأرشديني إلى الطريق بصـوتك. وقيل: إن موسى قال ابتداء: كوني ورائي فـإني رجل عبرانيّ لا أنظر في أدبار النساء، ودلّيني على الطريق يميناً أو يساراً [٢] ؛ فذلك سبب وصفها له بالأمانة؛ قاله ابن عباس. فوصل مـوسى إلى داعيه فقص عليه أمره من أوّله إلى آخـره فآنسه بقوله: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وكانت مدين خارجـة عن مملكة فرعون. وقرب إليه طعامـاً فقال موسى: لا آكل؛ إنا أهل بيت لا نبـيع ديننا بملء الأرض ذهباً؛ فـقال شعـيب: ليس هذا عوض الـسقي، ولكن عادتي وعادة آبائي قرى الضيف، وإطعام الطعام؛ فحينئذ أكل موسى.

الخامـسة: قوله تـعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ دليل على أن الإجارة كـانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كل ملة، وهي من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس؛ خلافاً للأصم حيث كان عن سماعها أصم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ الآية. فيه عرض الوليّ بنته على الرجل؛ وهذه سنة قائمة؛ عرض صـالح مدين ابنته على صالح بني إسرائيل، وعرض عمر بن الخطـاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعـرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ؛ فمن الحـسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح. قـال ابن عمر: لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان: إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر [٣] ؛ الحديث انفرد بإخراجه البخاري.

السابـعة: وفي هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الوليّ لا حظّ للمـرأة فيه؛ لأن صـالح مدين تولاه، وبه قال فقهاء الأمصار. وخالف في ذلك أبو حنيفة. وقد مضى.

الثامنة: هذه الآية تدلّ على أن للأب أن يزوّج ابنته البكر البالغ من غير اسـتئمار، وبه قال مالك واحـتج بهـذه الآية، وهو ظاهر قـويّ في الباب، واحـتـجـاجه بهـا يدلّ على أنه كـان يعـوّل على الإسرائيليـات؛ كما تقـدّم. وبقول مالك في هذه المسـألة قال الشافعي وكـثير من العلمـاء. وقال أبو حنيفـة: إذا بلغت الصغيرة فـلا يزوّجها أحد إلا برضـاها؛ لأنها بلغت حدّ التكليف؛ فـأما إذا كانت صغيرة فإنه يزوّجها بغير رضاها لأنه لا إذن لها ولا وضا؛ بغير خلاف.

= (٢٠/ ٦٣، ٦٤)، و(يثرون) صرح به ابن عـباس بسند صحيح إليـه كما في السابق، وعن أبي عـبيدة بن عتبة بسند صحيح كما في السابق، وفي تفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٢٧٥٠).

(١) لم يصح هذا فالفتـرة الزمنية بعيدة بين النبـيين الكريمين، ثم لم يصرح القرآن الكريم بأنه شعـيب عليه السلام، وراجع تفسير ابن كثير (٥/ ١١٠).

(٢) حسن: الطبري (٢٠/ ٦٥) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٢٧٧) في تفسيره.

(٣) صحيح: البخاري (٥٠٠٢) في المغازي.

التاسعة: استدل أصحاب الشافعي بقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح. وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود ومالك على اختلاف عنه. وقال علماؤنا في المشهور: ينعقد النكاح بكل لفظ. وقال أبو حنيفة: ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد؛ أما الشافعية فلا حجة لهم في الآية لأنه شرع من قبلنا وهم لا يرونه حجة في شيء في المشهور عندهم. وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن حيّ فقالوا: ينعقد النكاح بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه؛ لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية، قالوا: فكذلك النكاح. قالوا: والذي خصّ به النبي ﷺ تعري البُضْع من العوض لا النكاح بلفظ الهبة، وتابعهم ابن القاسم فقال: إن وهب ابنته وهو يريد إنكاحها فلا أحفظ عن مالك فيه شيئاً، وهو عندي جائز كالبيع. قال أبو عمر: الصحيح أنه لا ينعقد نكاح بلفظ الهبة، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبة شيء من الأموال. وأيضاً فإن النكاح مفتقر إلى التصريح لتقع الشهادة عليه، وهو ضدّ الطلاق فكيف يقاس عليه وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله: أبحت لك وأحللت لك فكذلك الهبة. وقال ﷺ: «استحللتم فروجهنّ بكلمة الله» [1] يعني القرآن، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة، وإنما فيه التزويج والنكاح، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطال بعض خصوصية النبي ﷺ.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ يدلّ على أنه عرض لا عقد؛ لأنه لو كان عقداً عين المعقود عليها له؛ لأن العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال: بعتك أحد عبديّ هذين بثمن كذا؛ فإنهم اتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح؛ لأنه خيار وشيء من الخيار لا يلصق بالنكاح.

الحادية عشرة: قال مكيّ: في هذه الآية خصائص في النكاح؛ منها أنه لم يعين الزوجة ولا حدّ أوّل الأمد، وجعل المهر إجارة، ودخل ولم ينقد شيئاً.

قلت: فهذه أربع مسائل تضمنتها المسألة الحادية عشرة:

الأولى: من الأربع مسائل، قال علماؤنا: أما التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المراوضة، وإنما عرض الأمر مجملاً، وعيّن بعد ذلك. وقد قيل: إنه زوّجه صفوريا وهي الصغرى. يروى عن أبي ذرّ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إن سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأوفاهما وإن سئلت: أي المرأتين تزوج؟ فقل الصغرى وهي التي جاءت خلفه وهي التي قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [2]. قيل: إن الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها؛ لأنه رآها في رسالته، وماشاها في إقباله إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمر غيره. وقيل غير هذا؛ والله أعلم. وفي بعض الأخبار أنه تزوّج بالكبرى؛ حكاه القشيري.

الثانية: وأما ذكر أوّل المدّة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه بل هو مسكوت عنه؛ فإمّا رسماه، وإلا فهو من أوّل وقت العقد.

---

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) ضعيف: ابن أبي حاتم (١١/ ٢٧٦) في تفسيره وفيه أبو هشام الوليد بن شجاع بن أبي بدر، ثقة يغرب.

الثالثة: وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر قد قرّره شرعنا، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن؛ رواه الأئمة؛ وفي بعض طرقه: فقال له رسول الله ﷺ: «ما تحفظ من القرآن» فقال: سورة البقرة والتي تليها؛ قال: «فعلمها عشرين آية وهي امرأتك»(١). واختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: فكرهه مالك، ومنعه ابن القاسم، وأجازه ابن حبيب؛ وهو قول الشافعي وأصحابه؛ قالوا: يجوز أن تكون منفعة الحرّ صداقاً كالخياطة والبناء وتعليم القرآن. وقال أبو حنيفة: لا يصح؛ وجوّز أن يتزوّجها بأن يخدمها عبده سنة، أو يسكنها داره سنة؛ لأن العبد والدار مال، وليس خدمتها بنفسه مالاً. وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز؛ لقوله تعالى: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤] وقال أبو بكر الرازي: لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد، فهما متنافيان. وقال ابن القاسم: ينفسخ قبل البناء ويثبت بعده. وقال أصبغ: إن نقد معه شيئاً ففيه اختلاف، وإن لم ينعقد فهو أشد، فإن ترك مضى على كل حال بدليل قصة شعيب؛ قاله مالك وابن الموّاز وأشهب. وعوّل على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة؛ قال ابن خويزمنداد. تضمّنت هذه الآية النكاح على الإجارة والعقد صحيح، ويكره أن تجعل الإجارة مهراً، وينبغي أن يكون المهر مالاً كما قال عز وجل: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ﴾ [النساء: ٢٤] هذا قول أصحابنا جميعاً.

الرابعة: وأما قوله: ودخل ولم ينقد فقد اختلف الناس في هذا؛ هل دخل حين عقد أم حين سافر؟ فإن كان حين عقد فماذا نقد؟ وقد منع علماؤنا من الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار؛ قاله ابن القاسم. فإن دخل قبل أن ينقد مضى، لأن المتأخرين من أصحابنا قالوا: تعجيل الصداق أو شيء منه مستحب. على أنه إن كان الصداق رعية الغنم فقد نقد الشروع في الخدمة؛ وإن كان دخل حين سافر فطول الانتظار في النكاح جائز وإن كان مدى العمر بغير شرط. وأما إن كان بشرط فلا يجوز إلا أن يكون الغرض صحيحاً مثل التأهب للبناء أو انتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة؛ نصّ عليه علماؤنا.

الثانية عشرة: في هذه الآية اجتماع إجارة ونكاح، وقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: الأوّل: قال في ثمانية أبي زيد: يكره ابتداء فإن وقع مضى. الثاني: قال مالك وابن القاسم في المشهور: لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده؛ لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينة. الثالث: أجازه أشهب وأصبغ. قال ابن العربي: وهذا هو الصحيح وعليه تدلّ الآية؛ وقد قال مالك النكاح أشبه شيء بالبيوع، فأي فرق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح.

فرع: وإن أصدقها تعليم شعر مباح صحّ؛ قال المزني: وذلك مثل قول الشاعر:

يقول العبد فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

وإن أصدقها تعليم شعر فيه هجو أو فحش كان كما لو أصدقها خمراً أو خنزيراً.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقاً وقال مالك إنه

(١) متفق عليه بنحوه: البخاري (٥١٢١) في النكاح، ومسلم (١٤٢٥/ ٧٦) في النكاح، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

جائز ويحمل عـلى العرف، فلا يحتاج في التـسمية إلى الخـدمة، وهو ظاهر قصة مـوسى، فإنه ذكر إجارة مطلقـة. وقال أبو حنيفة والشـافعي: لا يجوز حتى يسـمى لأنه مجهول وقد ترجـم البخاريّ: «باب من استأجر أجيراً فبيّن له الأجل ولم يبيّن له العمل» لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ قال المهلّـب: ليس كما ترجم؛ لأن العـمل عندهم كان مـعلوماً من سـقي وحرث ورعي ومـا شاكل أعمال البادية في مهنة أهلهـا، فهذا متعارف وإن لم يبيّن له أشخاص الأعـمال ولا مقاديرها؛ مثل أن يقول لـه: إنك تحرث كذا من السـنة، وترعى كذا من السنة، فـهذا إنما هو على المعـهود من خـدمة البادية، وإنما الذي لا يجوز عند الجميع أن تكون المدّة مجهولة، والعـمل مجهول غير معهود لا يجوز حتى يـعلم. قال ابن العـربي: وقد ذكر أهل الـتفسـير أنه عـيّن له رعيـة الغنم، ولم يرو من طريق صحيحة، ولكن قالوا: إن صالح مدين لم يكن له عمل إلا رعية الغنم، فكان ما عُلم من حاله قائماً مقام التعيين للخدمة فيه.

الرابعة عشرة: أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعي شـهوراً معلومة، بأجرة معلومة، لرعاية غنم معدودة؛ فإن كانت معدودة معينة، ففيها تفصيل لعلمائنا؛ قال ابن القاسم: لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت، وهي رواية ضعيفة جداً؛ وقـد استأجر صالح مدين موسى على غنمه، وقد رآها ولم يشترط خلفاً؛ وإن كانت مطـلقة غير مسماة ولا معينة جازت عنـد علمائنا. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تجـوز لجهالتها؛ وعـوّل علماؤنا على العرف حسـبما ذكرناه آنفاً؛ وأنـه يعطى بقدر ما تحتمل قوّته. وزاد بعض علمـائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجر قدر قوّته، وهـو صحيح فإن صالح مدين علم قدر قوّة موسى برفع الحجر.

الخامسـة عشرة: قال مالك: وليس على الراعي ضـمان وهو مصدَّق فيـما هلك أو سرق؛ لأنه أمين كالوكيل. وقد ترجم البخاري: «باب إذا أبصر الراعي أو الوكيل شاة تموت أو شيئاً يفسد فأصلح ما يخاف الفسـاد» وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه: أنه كـانت لهم غنم ترعى بسَلْع، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتاً فـكسرت حجراً فذبحتها به، فـقال لهم: لا تأكلوا حتى أسأل النبي أو أرسل إلى النبي ﷺ من يسأله وأنه سأل النبي ﷺ أو أرسل إليه فأمره بأكلها؛ قال عبد الله: فيعجبني أنها أمة وأنها ذبحت. قال المهلّب: فـيه من الفقه تصديق الراعي والوكيل فيمـا ائتمنا عليه حتى يظهر عليهما دليل الخيانة والكذب؛ وهذا قول مـالك وجماعة. وقال ابن القاسم: إذا خاف الموت على شاة فذبحها لم يضمن ويصدق إذا جاء بها مذبوحة. وقال غيره: يضمن حتى يبين ما قال.

السادسة عشرة: واختلف ابن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت فـقال ابن القاسم: لا ضمـان عليه؛ لأن الإنزاء من إصلاح المال ونمائه. وقال أشـهب: عليه الضمان؛ وقول ابن القاسم أشـبه بدليل حديث كعب، وأنه لا ضمان عليه فيمـا تلف عليه باجتهاده، إن كان من أهل الصلاح، وممن يعلم إشـفاقه على المال؛ وأما إن كان من أهل الفسـوق والفساد وأراد صاحب المال أن يضمنه فعل؛ لأنه لا يصدق أنه رأى بالشاة موتاً لما عرف من فسقه.

السابعـة عشرة: لم ينقل ما كـانت أجرة موسى علـيه السلام؛ ولكن روى يحـيى بن سلاّم أن صالح مدين جـعل لموسى كل سخلة توضع خلاف لون أمها، فأوحى الله إلى مـوسى أن ألق عصاك

بينهن يلدن خلاف شبـهـهن كلّهن. وقال غير يحيى: بل جـعل له كل بلقاء تولد له، فولدن له كلهن بُلْقاً. وذكر القُشيـري أن شعيباً لما استأجر موسى قال له: ادخلِ بيت كـذا وخذ عصا من العصيّ التي في البيت، فـأخرج موسى عـصا، وكان أخـرجها آدم من الجنة، وتوارثهـا الأنبياء حـتى صارت إلى شعيب، فأمره شـعيب أن يلقيها في البيت ويأخذ عصا أخرى، فـدخل وأخرج تلك العصا؛ وكذلك سبع مرات كل ذلك لا تقع بيـده غير تلك فعلم شعيب أن له شأناً؛ فلمـا أصبح قال له: سق الأغنام إلى مفرق الطريق، فخذ عن يمينك وليس بهـا عشب كثير، ولا تأخذ عن يسارك فإن بها عـشباً كثيراً وتنِّيناً كبيـراً لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مـفرق الطريق، فأخذت نحو اليـسار ولم يقدر على ضبطها، فنام موسى وخرج التنِّين، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديداً وحاربت التنِّين حتى قتلته، وعادت إلى موسى عليه السلام، فلمـا انتبه موسى رأى العصا مخضوبة بالدم، والتنِّين مـقتولاً؛ فعاد إلى شعيب عشاء، وكان شعيب ضريراً فـمس الأغنام، فإذا، أثر الخِصب بادٍ عليها، فسأله عن القصة فأخـبره بها، ففـرح شعيب وقـال: كل ما تلد هذه المواشي هذه السنة قالبَ لون أي ذات لونين فـهو لك؛ فجاءت جـميع السخال تلك السنة ذات لونين، فعلم شـعيب أن لموسى عند الله مكانة. وروى عُيَيْنة بن حِصن أن رسول الله ﷺ قال: «أجر موسى نفسه بشبع بطنه وعفّة فرجه»(١) فقال له شعيب لك منها يعني من نتـاج غنمه ما جـاءت به قالب لون ليس فيهـا عَزُوزٌ ولا فَشُوشٌ ولا كَـمُوشٌ ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ. قال الهروي: العزوز البكيئة؛ مأخوذ من العزاز وهي الأرض الصلبة، وقد تعزَّزت الشاة. والفَشُوشُ التي يَنْفَشُ لبنُها من غير حلب وذلك لسعة الإحليل، ومـثله الفَتُوح والثَّرُورُ. ومن أمثـالهم: (لأَفُشَّنَّكَ فَشَّ الْوَطْبِ) أي لأخـرجن غضبك وكـبرك من رأسك. ويقال: فَشَّ الـسِّقاءَ إذا أخرج منه الريح. ومنه الحديث: «إن الشيطان يَفُشّ بين أَلْيَتَيْ أحـدكم حتى يُخَيَّلَ إليه أنه أحدث»(٢) أي ينفخ نفخاً ضـعيفاً. والكَمُوشُ: الصغيـرة الضرع، وهي الكميشة أيضاً؛ سـميت بذلك لانكماش ضرعهـا وهو تقلصه؛ ومنه يقال: رجل كـميش الإزار. والكَشُودُ مثل الكَـموش. والضَّبُوبُ الضـيقة ثقب الإحليل. والضَّبُّ الحَلْب بشدّة العصر. والثَّعُولُ الـشاة التي لها زيادة حلمة وهي الثعل. والثَّعل زيادة السنّ، وتلك الزيادة هـي الرَّاؤول. ورجل أثعل. والثعـل ضيق مـخـرج اللبن. قال الهـروي: وتفسير قالب لون في الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها.

الثامنة عشرة: الإجارة بالعوض المجهول لا تجوز؛ فـإن ولادة الغنم غير معلومة، وإن من البلاد الخصبة مـا يعلم ولاد الغنم فيها قطعاً وعدّتها وسـلامة سخالها كديار مصـر وغيرها، بيد أن ذلك لا يجوز في شرعنا ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الغَرَر(٣) ، ونهى عن المضامين والملاقيح (٤) . والمضامين

---

(١) ضعيف جدًا : ابن ماجه (٢٤٤٤) في الرهون ، وضعفه الألباني جدًا (١٤٨٨) في الإرواء ، ورواه ابن أبي حاتم (١١/ ٢٧٩) في تفسيره، وفيه الوليد بن مسلم وهو مدلس .

(٢) ضعيف : ابن الأثير (٣/ ٤٤٧) في النهاية ، وبنحوه عند أحمد (١٢٥٦٩) في المسند.

(٣) صحيح : سبق تخريجه ، وانظر مسلم (١٥١٣/ ٤) في البيوع ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه .

(٤) ضعيف وهو محتمل للتحسين: الطبراني في الكبير والبزار وفيه إبراهيم بن إسحاق بن أبي حبيبة وثقه أحمد وضعفه جمهور الأئمة وهو عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وانظر: مجمع الزوائد (٤/ ١٠٤) للهيثمي رحمه الله.
قلت : له حديث واحد عند البخاري (٢١٤٣) في البيوع ، ومسلم (١٥١٤/ ٥، ٦) في البيوع.

ما في بطون الإناث، والملاقيح ما في أصلاب الفحول وعلى خلاف ذلك قال الشاعر:

مَلْقُوحَة في بطنِ نابٍ حامِلِ

وقد مضى في سورة «الحجر» بيانه. على أن راشد بن معمر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والربع. وقال ابن سيرين وعطاء: ينسج الثوب بنصيب منه؛ وبه قال أحمد.

التاسعة عشرة: الكفاءة في النكاح معتبرة؛ واختلف العلماء هل في الدين والمال والحسب، أو في بعض ذلك. والصحيح جواز نكاح الموالي للعربيات والقرشيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريباً طريداً خائفاً وحيداً جائعاً عرياناً فأنكحه ابنته لما تحقق من دينه ورأى من حاله، وأعرض عما سوى ذلك. وقد تقدّمت هذه المسألة مستوعبة والحمد لله.

الموفية عشرين: قال بعضهم: هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذكراً لصداق المرأة، وإنما كان اشتراطاً لنفسه على ما يفعله الأعراب؛ فإنها تشترط صداق بناتها، وتقول: لي كذا في خاصة نفسي، وترك المهر مفوّضاً؛ ونكاح التفويض جائز. قال ابن العربي: هذا الذي تفعله الأعراب هو حلوان وزيادة على المهر، وهو حرام لا يليق بالأنبياء؛ فأمّا إذا اشترط الوليّ شيئاً لنفسه، فقد اختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين: أحدهما: أنه جائز. والآخر: لا يجوز. والذي يصح عندي التقسيم؛ فإن المرأة لا تخلو أن تكون بكراً أو ثيباً؛ فإن كانت ثيباً جاز؛ لأن نكاحها بيدها، وإنما يكون للوليّ مباشرة العقد، ولا يمتنع أخذ العوض عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع. وإن كانت بكراً كان العقد بيده، وكأنه عوض في النكاح لغير الزوج وذلك باطل؛ فإن وقع فُسِخ قبل البناء، وثبت بعده على مشهور الرواية. والحمد لله.

الحادية والعشرون: لما ذكر الشرط وأعقبه بالطوع في العشر خرج كل واحد منهما على حكمه، ولم يلحق الآخر بالأوّل، ولا اشترك الفرض والطوع؛ ولذلك يكتب في العقود الشروط المتفق عليها، ثم يقال وتطوّع بكذا، فيجري الشرط على سبيله، والطوع على حكمه، وانفصل الواجب من التطوّع. وقيل: ومن لفظ شعيب حسن في لفظ العقود في النكاح أنكحه إياها أولى من أنكحها إياه على ما يأتي بيانه في «الأحزاب». وجعل شعيب الثمانية الأعوام شرطاً، ووكل العاشرة إلى المروءة.

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ لما فرغ كلام شعيب قرّره موسى عليه السلام وكرر معناه على جهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثمان حجج. و﴿أَيَّمَا﴾ استفهام منصوب بـ﴿قَضَيْتُ﴾ و﴿الْأَجَلَيْنِ﴾ مخفوض بإضافة «أي» إليهما و«ما» صلة للتأكيد وفيه معنى الشرط وجوابه ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ وأن ﴿عُدْوَانَ﴾ منصوب بـ«لا». وقال ابن كيسان: «ما» في موضع خفض بإضافة «أي» إليها وهي نكرة و﴿الْأَجَلَيْنِ﴾ بدل منها. وكذلك في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي رحمة بدل من ما؛ قال مكي: وكان يتلطف في ألا يجعل شيئاً زائداً في القرآن، ويخرج له وجهاً يخرجه من الزيادة. وقرأ الحسن: «أيْمَا» بسكون الياء. وقرأ ابن مسعود: «أيَّ الأجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ». وقرأ الجمهور: ﴿عُدْوَانَ﴾ بضم العين. وأبو حَيْوة بكسرها؛ والمعنى:

لا تبعة عليّ ولا طلب في الزيادة عليه. والعدوان التجاوز في غير الواجب، والحجج السنون. قال الشاعر:

لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن دهر

الواحدة حجة بكسر الحاء. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قيل: هو من قول موسى. وقيل: هو من قول والد المرأة. فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحداً من الخلق، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح؛ وهي:

الثالثة والعشرون: على قولين: أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين. وبه قال أبو حنيفة والشافعي. وقال مالك: إنه ينعقد دون شهود؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُّفُّ. وقد مضت هذه المسألة في «البقرة» مستوفاة. وفي البخاري عن أبي هريرة: أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار فقال ايتني بالشهداء أشهدهم، فقال كفى بالله شهيداً؛ فقال ايتني بكفيل؛ فقال كفى بالله كفيلا. قال صدقت فدفعها إليه [(١)]؛ وذكر الحديث.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ قال سعيد بن جبير: سألني رجل من النصارى أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله يعني ابن عباس فقدمت عليه فسألته؛ فقال: قضى أكملهما وأوفاهما. فأعلمت النصراني فقال: صدق والله هذا العالم. وروي عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ سأل في ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشر سنين [(٢)]. وحكى الطبري عن مجاهد أنه قضى عشراً وعشراً بعدها [(٣)]؛ رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس. قال ابن عطية [(٤)]: وهذا ضعيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قيل: فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء؛ لما لَهُ عليها من فضل القوّامية وزيادة الدرجة إلا أن يلتزم لها أمراً فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ الآية. تقدّم القول في ذلك في «طه» [(٥)]. والجذوة بكسر الجيم قراءة العامة، وضمها حمزة ويحيى، وفتحها عاصم والسُّلَمي وزرّ بن حُبَيش [(٦)].

---

(١) صحيح: البخاري (٢٢٩١) في الكفالة تعليقًا، ووصله ابن حجر ـ رحمه الله، وانظر: المسند (٢/ ٣٤٨) للإمام أحمد ـ رحمه الله.

(٢) صحيح: البخاري (٢٦٨٤) في الشهادات.

(٣) ضعيف المتن: الطبري (٢٠/ ٧٠) في تفسيره.

(٤) حسن لغيره: انظر: الطبري (٢٠/ ٧٠) في تفسيره.

(٥) عند الآية (١٠).

(٦) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥٦).

قال الجوهري: الجذْوة والْجُذْوَة والْجَذْوَةُ الجمرة الملتهبة والجمع جِذاً وجُذاً وجَذاً. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي قطعة من الجمر؛ قال: وهي بلغة جميع العرب. وقال أبو عبيدة: والجِذْوة مثل الجذمة وهي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نار أو لم يكن. قال ابن مقبل:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا ... جَزْلَ الْجِذَا غَيْرَ خَوَّارٍ وَلا دَعِرِ

وقال:

وَأَلْقَى على قَيْسٍ منَ النَّار جِذْوَةً ... شديداً عليها حَمْيُها ولهيبُها

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعني الشجرة قدم ضميرها عليها. ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ﴾ «من» الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة. و﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ بدل من قوله: ﴿ مِن شَاطِئِ الْوَادِ﴾ بدل الاشتمال؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ، وشاطئ الوادي وشطه جانبه، والجمع شُطَّان وشواطئ، ذكره القشيري. وقال الجوهري: ويقال شاطئ الأودية ولا يجمع. وشاطأت الرجل إذا مشيت على شاطئ ومشى هو على شاطئ آخر. ﴿الأَيْمَنِ﴾ أي عن يمين موسى. وقيل: عن يمين الجبل. ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ وقرأ الأشهب العقيلي: «فِي الْبَقْعَةِ» بفتح الباء. وقولهم بقعا يدلّ على بَقْعة؛ كما يقال جَفْنة وجِفَان. ومن قال بُقْعة قال بُقَع مثل غُرْفة وغُرَف. ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ أي من ناحية الشجرة. قيل: كانت شجرة العلّيق. وقيل: سَمُرة وقيل: عَوْسج. ومنها كانت عصاه؛ ذكره الزمخشري. وقيل: عُنَّاب، والعَوْسج إذا عظم يقال له الغَرْقَد. وفي الحديث: إنه من شجر اليهود فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدّجال فلا يختفي أحد منهم خلف شجرة إلا نطقت وقالت يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله إلا الغَرْقَد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق. خرجه مسلم(١). قال المهدوي: وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال وشبه ذلك من صفات المخلوقين. قال أبو المعالي: وأهل المعاني وأهل الحق يقولون مَن كلمه الله تعالى وخصّه بالرتبة العليا والغاية القصوى، فيدرك كلامه القديم المتقدس عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات، كما أن مَن خصه الله بمنازل الكرامات وأكمل عليه نعمته ورزقه رؤيته، يرى الله سبحانه منزّهاً عن مماثلة الأجسام وأحكام الحوادث، ولا مثل له سبحانه في ذاته وصفاته، وأجمعت الأمة على أن الرب تعالى خصص موسى عليه السلام وغيره من المصطفين من الملائكة بكلامه. قال الأستاذ أبو إسحاق: اتفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق في موسى عليه السلام معنى من المعاني أدرك به كلامه كان اختصاصه في سماعه، وأنه قادر على مثله في جميع خلقه.

(١) صحيح: مسلم (٢٩٢١) في الفتن وأشراط الساعة، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما، و(٢٩٢٢)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

واختلفوا في نبينا عليه السلام هل سمع ليلة الإسراء كلام الله، وهل سمع جبريل كلامه؟ على قولين؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود، واتفقوا على أن سماع الخلق له عند قراءة القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارة التي عرفوا بها معناه دون سماعه له في عينه، وقال عبد الله بن سعد بن كلاب: إن موسى عليه السلام فهم كلام الله القديم من أصوات مخلوقة أثبتها الله تعالى في بعض الأجسام.

قال أبو المعالي: وهذا مردود؛ بل يجب اختصاص موسى عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقاً للعادة، ولو لم يُقَلَ ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاص بتكليم الله إياه.

والرب تعالى أسمعه كلامه العزيز، وخلق له علماً ضرورياً، حتى علم أن ما سمعه كلام الله، وأن الذي كلّمه وناداه هو الله رب العالمين. وقد ورد في الأقاصيص أن موسى عليه السلام قال: سمعت كلام ربي بجميع جوارحي، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتي[1]، وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مستوفى. ﴿أَن يَا مُوسَىٰ﴾ ﴿أَن﴾ في موضع نصب بحذف حرف الجر أي بـ﴿أن يا مُوسَىٰ﴾. ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ نفى لربوبية غيره سبحانه. وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عز وجل لا من رسله؛ لأنه لا يصير رسولاً إلا بعد أمره بالرسالة، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على ﴿أَن يَا مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٠] وتقدم الكلام في هذا في «النمل»[2] وفي «طه»[3]. و﴿مُدْبِرًا﴾ نصب على الحال وكذلك موضع قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ نصب على الحال أيضاً. ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ أي من الحية وضررها. قال وهب: قيل له ارجع إلى حيث كنت. فرجع فلفَّ دُرَّاعته على يده، فقال له الملك: أرأيت إن أراد الله أن يصيبك بما تحاذر أينفعك لَفُّك يدك؟ قال: لا ولكني ضعيف خلقت من ضعف. وكشف يده فأدخلها في فم الحية فعادت عصا. ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي مما تحاذر.

---

(١) كلام متأخرى الأشاعرة في صفة الكلام لله تعالى يشبه كلام المعتزلة، وكلام زنادقة الصوفية، فهم يقولون ـ وناقل الكفر ليس بكافر ـ إنه تعالى لا يتكلم فإذا أراد أن يكلم أحداً ركبّ فيه صفة يفهم بها معنى كلام الله تعالى الذي داخل نفسه بلا كلام ولا حروف.
وهذا يعني نفي صفة الكلام، وربنا سبحانه صرّح فقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].
ثم مسألة الأصوات المخلوقة في بعض الأجسام يعني التشبه بالزنادقة القائلين بـ (الحلول والاتحاد) كما وضح شيخ الإسلام، وعلى ذلك فكلام الله تعالى للشجرة حلول له فيها؛ وهذا كله باطل.
وللمزيد ارجع إلى: شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين (ص ٢٢٧ ـ ٢٣٠) ط دار الغد الجديد.

(٢) عند الآية (١٠).

(٣) عند الآيتين (١٨، ١٩).

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ الآية؛ تقدّم القول فيها. ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ «من» متعلقة بـ﴿وَلَّىٰ﴾ [القصص: ٣١] أي ولّى مدبراً من الرهب، وقرأ حفص والسُّلَميّ وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ بفتح الراء وإسكان الهاء[١]. وقرأ ابن عامر والكوفيون إلا حفص بضم الراء وجزم الهاء[٢]. الباقون بفتح الراء والهاء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وكلها لغات وهو بمعنى الخوف. والمعنى إذا هَالَكَ أمرُ يَدِك وشعاعها فأدخلها في جيبك وارددها إليه تعد كما كانت. وقيل: أمره الله أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية. عن مجاهد وغيره ورواه الضحاك عن ابن عباس[٣]؛ قال: فقال ابن عباس: ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب[٤]. ويحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أن كاتباً كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمه الأرض. فقال له عمر: خذ قلمك واضمم إليك جناحك، وليفرخ روعك فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي. وقيل: المعنى اضمم يدك إلى صدرك ليذهب الله ما في صدرك من الخوف. وكان موسى يرتعد خوفاً إما من آل فرعون وإما من الثعبان. وضم الجناح هو السكون؛ كقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] يريد الرفق. وكذلك قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أي ارفق بهم. وقال الفراء: أراد بالجناح عصاه. وقال بعض أهل المعاني: الرهب الكُمّ بلغة حمير وبني حنيفة. قال مقاتل: سألتني أعرابية شيئاً وأنا آكل فملأت الكف وأومأت إليها فقالت: هاهنا في رهبي. تريد في كُمّي. وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول لآخر أعطني رهبك. فسألته عن الرهب فقال: الكُمّ؛ فعلى هذا يكون معناه اضمم إليك يدك وأخرجها من الكُم؛ لأنه تناول العصا ويده في كمه وقوله: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ يدلّ على أنها اليد اليمنى؛ لأن الجيب على اليسار. ذكره القشيري.

قلت: وما فسره من ضم اليد إلى الصدر يدلّ على أن الجيب موضعه الصدر. وقد مضى في سورة «النور» بيانه. الزمخشري: ومن بدع التفاسير: أن الرهب الكُم بلغة حمير وأنهم يقولون:

(١، ٢) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص١٥٦).

(٣) منقطع: فيه الضحاك، عن ابن عباس ولم يلقه. الطبري (٢٠/ ٧١) في تفسيره.

(٤) ذكره البغوي (٦/ ٢٠٧) في تفسيره، عن عطاء، عن ابن عباس.

أعطني مما في رهبك، وليت شعري كيف صحته في اللغة وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم، ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية، وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل؛ على أن موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زُرْمَانِقَة[1] من صوف لا كمين لها. قال القشيري: وقوله: ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ يريد اليدين إن قلنا أراد الأمن من فزع الثعبان. وقيل: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ أي شمر واستعد لتحمل أعباء الرسالة.

قلت: فعلى هذا قيل: ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١] أي من المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ١٠]. قال ابن بحر: فصار على هذا التأويل رسولاً بهذا القول. وقيل: إنما صار رسولاً بقوله: ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ والبرهانان اليد والعصا. وقرأ ابن كثير: بتشديد النون[2] وخففها الباقون. وروى أبو عمارة عن أبي الفضل عن أبي بكر عن ابن كثير، «فَذَانِّيكَ» بالتشديد والياء. وعن أبي عمرو أيضاً قال لغة هذيل: «فَذَانِيكَ» بالتخفيف والياء. ولغة قريش «فَذَانِكَ» كما قرأ أبو عمرو وابن كثير. وفي تعليله خمسة أقوال: قيل شدّد النون عوضاً من الألف الساقطة في ذانك الذي هو تثنية ذا المرفوع، وهو رفع بالابتداء، وألف ذا محذوفة لدخول ألف التثنية عليها، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين؛ لأن أصله ﴿فَذَانِكَ ﴾ فحذف الألف الأولى عوضاً من النون الشديدة، وقيل: التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك. مكي: وقيل إن من شدّد إنما بناه على لغة من قال في الواحد ذلك، فلما بنى أثبت اللام بعد نون التثنية، ثم أدغم اللام في النون على حكم إدغام الثاني في الأوّل، والأصل أن يدغم الأوّل أبداً في الثاني، إلا أن يمنع من ذلك علّة فيدغم الثاني في الأوّل، والعلّة التي منعت في هذا أن يدغم الأوّل في الثاني أنه لو فعل ذلك لصار في موضع النون التي تدلّ على التثنية لام مشدّدة فيتغير لفظ التثنية فأدغم الثاني في الأوّل لذلك؛ فصار نوناً مشدّدة. وقد قيل: إنه لما تنافى ذلك أثبت اللام قبل النون ثم أدغم الأوّل في الثاني على أصول الإدغام فصار نوناً مشدّدة. وقيل: شدّدت فرقاً بينها وبين الظاهر التي تسقط الإضافة نونه؛ لأن ذان لا يضاف. وقيل: للفرق بين الاسم المتمكن وبينها. وكذلك العلّة في تشديد النون في «اللذان» و«هذان». قال أبو عمرو: إنما اختص هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية من جنسه لقلة حروفه فقرأه بالتثقيل. ومن قرأ: «فَذَانِيكَ» بياء مع تخفيف النون فالأصل عنده «فَذَانِّكَ» بالتشديد فأبدل من النون الثانية ياء كراهية التضعيف، كما قالوا: لا أملاه في لا أمَلُّه فأبدلوا اللام الثانية ألفاً. ومن قرأ بياء بعد النون الشديدة فوجهه أنه أشبع كسرة النون فتولدت عنها الياء.

قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ يعني معيناً مشتق من أردأته أي أعنته. والردء العون. قال الشاعر:

ألم تر أنّ أصْرمَ كان رِدئي وخيرَ الناسِ في قُلٍّ ومال

النحاس: وقد أردأه ورداه أي أعانه؛ وترك همزه تخفيفاً. وبه قرأ نافع، وهو بمعنى المهموز. قال

---

(١) زُرمقانة: جبة من صوف وهي معربة. اللسان «ذرمق».

قلت: والخبر من الإسرائيليات، وانظره في: الكشاف (٣/١٦٦).

(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٠٥).

المهدوي: ويجـوز أن يكون ترك الهمز من قـولهم أردى على المائة أي زاد عليهـا، وكأن المعنى أرسله معي زيادة في تصديقي؛ قاله مسلم بن جندب. وأنشد قول الشاعر:

وأسمر خطّيا كأنّ كُعوبَه نوى القَسْب قد أردَى ذراعاً على العَشْر

كذا أنشـد الماوردي هذا البيت: قد أردى. وأنشده الـغزنوي والجوهري في الصحـاح قد أرمى؛ قـال: والقسب: الصلب، والـقسب: تمر يابس يتـفـتت في الفم صلب النواة. قـال يصف رمحـاً: وأسمر. البيت. قال الجوهري: ردؤ الشيء يردؤ رداءة فـهو رديء أي فاسد، وأردأته أفسدته، وأردأته أيضاً بمعنى أعنتـه؛ تقول: أردأته بنفسي أي كنت له رِدءاً وهو العون. قـال الله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ قـال النحـاس: وقـد حكى ردأته: رِدءاً وجـمع ردء أرْدَاءٌ. وقـرأ عاصم وحـمـزة: ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بالرفع. وجزم الباقون[1]؛ وهو اختيـار أبي حاتم على جواب الدعاء. واختـار الرفع أبو عبيـد على الحال من الهاء في ﴿فَأَرْسِلْهُ﴾ أي أرسله ردءاً مصـدّقاً حالة التصديـق؛ كقوله: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ﴾ [المائدة: ١١٤] أي كائنة؛ حـال صرف إلى الاستقـبال. ويجوز أن يكون صـفة لقوله: ﴿رِدْءًا﴾. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ إذا لم يكن لي وزير ولا معين؛ لأنهم لا يكادون يفـقهون عني، فـ﴿قَالَ﴾ الله جل وعز له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي نقوّيك به؛ وهذا تمثـيل؛ لأن قوّة اليد بالعضد، وقال طَرَفة:

بَني لُبَيْنَى لستُمُ بيدٍ إلاّ يداً ليست لها عَضد

ويقال في دعاء الخير: شدّ الله عضدك. وفي ضدّه: فتّ الله في عضدك. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي حجة وبرهاناً. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بالأذى ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي تمتنعان منهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ فيجوز أن يوقف على ﴿إِلَيْكُمَا﴾ ويكون في الكلام تقديم وتأخيـر. وقيل: التقدير ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ بآياتنا. قاله الأخفش والطبري. قال المهدوي: وفي هذا تقديم الـصلة على الموصول، إلا أن يقدّر أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون. وعنى بالآيات سائر معجزاته.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

---

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي ظاهرات واضحات ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ مكذوب مختلق ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي في الأمم الماضية؛ قاله ابن عباس. والباء في ﴿بِهَٰذَا﴾ زائدة، أي ما سمعنا هذا كائنًا في آبائنا الأولين، وقيل: إن هذه الآيات ما احتج به موسى في إثبات التوحيد من الحجج العقلية. وقيل: هي معجزاته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ قراءة العامة بالواو. وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محصين: «قَالَ» بلا واو[1]؛ وكذلك هو في مصحف أهل مكة. ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي بالرشاد. ﴿مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصماً: «يكون» بالياء[2]، والباقون بالتاء. وقد تقدّم هذا. ﴿عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي دار الجزاء. ﴿إِنَّهُ﴾ الهاء ضمير الأمر والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ قال ابن عباس: كان بينها وبين قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] أربعون سنة، وكذب عدوّ الله بل علم أن له ثَمَّ ربّاً هو خالقه وخالق قومه. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي اطبخ لي الآجرّ؛ عن ابن عباس رضي الله عنه[3]. وقال قتادة: هو أوّل من صنع الآجرّ وبنى به. ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال قيل خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ الآجرّ والجص، ونشر الخشب، وضرب المسامير، فبنوا ورفعوا البناء وشيّدوا بحيث لم يبلغه بنيان منذ خلق الله السموات والأرض، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه. فحكى السدّي: أن فرعون صعد السطح ورمى بنُشّابة نحو السماء، فرجعت متلطخة بدماء، فقال قد قتلت إله موسى. فروي أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقالته، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع؛ قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف، وقطعة في البحر، وقطعة في الغرب، وهلك كل من عمل فيه شيئاً[4]. والله أعلم بصحة ذلك. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الظن هنا شك، فكفر على الشك؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يُخيل على ذي فطرة.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي تعظّم ﴿هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ أي عن الإيمان بموسى. ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بالعدوان، أي لم تكن له حجة تدفع ما جاء به موسى. ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي توهموا أنه لا معاد ولا بعث. وقرأ نافع وابن محيصن وشيبة وحميد ويعقوب وحمزة والكسائي: ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمى الفاعل[5]. الباقون: «يُرْجَعُونَ» على الفعل المجهول. وهو اختيار أبي عبيد، والأوّل اختيار أبي حاتم. ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ وكانوا ألفي ألف وستمائة ألف. ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي طرحناهم في البحر المالح. قال قتادة: بحر من وراء مصر يقال له إِسَاف أغرقهم الله فيه[6]. وقال وهب والسدّي: المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحية الْقُلْزُم يقال له بطن

---

(١) قراءة متواترة: السابق (ص ١٥٦).
(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١١٢).
(٣) ضعيف: فيه الضحاك، عن ابن عباس، كما عند ابن أبي حاتم (١١/ ٢٩٧) في تفسيره.
(٤) ليس بصحيح: انظر: النكت والعيون (٣/ ٢٢٩).
(٥) قراءة متواترة: الإقناع (٢/ ٧٢٤).
(٦) غريب المتن: الطبري (٢٠/ ٨٠) في تفسيره.

مُرَيْرَة، وهو إلى اليوم غضبان[١]. وقال مقاتل: يعني نهر النيل[٢]. وهذا ضعيف والمشهور الأوّل. ﴿فانظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي آخر أمرهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر. وقيل: جعل الله الملأ من قومه رؤساء السّفلة منهم، فهم يدعون إلى جهنم. وقيل: أئمة يأتم بهم ذوو العبر ويتّعظ بهم أهل البصائر. ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي إلى عمل أهل النار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾. ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي أمرنا العباد بلعنهم فمن ذكرهم لعنهم. وقيل: أي ألزمناهم اللعن أي البعد عن الخير. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من المهلَكين الممقوتين. قاله ابن كيسان وأبو عبيدة. وقال ابن عباس: المشوّهين الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون[٣]. وقيل: من المبعدين. يقال: قَبَحه الله أي نحاه من كل خير، وَقَبَحه وقَبَّحه إذا جعله قبيحاً. وقال أبو عمرو: قبحت وجهه بالتخفيف معناه قَبَّحت. قال الشاعر:

ألاَ قَبَحَ اللَّهُ البراجِمَ كلَّها وقَبَّح يَرْبوعاً وقَبَّح دَارِمَا

وانتصب يوماً على الحمل على موضع ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ واستغنى عن حرف العطف في قوله: ﴿مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ كما استغنى عنه في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]. ويجوز أن يكون العامل في ﴿يَوْمَ﴾ مضمراً يدلّ عليه قوله: ﴿هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ فيكون كقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]. ويجوز أن يكون العامل في ﴿يَوْمَ﴾ قوله: ﴿هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ وإن كان الظرف متقدماً. ويجوز أن يكون مفعولاً على السعة، كأنه قال وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة، ولعنة يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة؛ قاله قتادة. قال يحيى بن سلاّم: هو أوّل كتاب يعني التوراة[٤] نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام[٥]. وقيل: الكتاب هنا ستّ من المثاني السبع التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس، ورواه مرفوعاً[٦]. ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ﴾ قال أبو سعيد الخدري: قال النبيّ ﷺ: «ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمّة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على موسى غير القرية التي مسخت قردة ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ﴾»[٧]، أي من بعد قوم نوح وعاد وثمود. وقيل: أي من بعد ما أغرقنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون. ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي

(١، ٢) فتح القدير (٤/ ٢٤٤) للشوكاني غير مسندين.

(٣) ذكره البغوي (٦/ ٢١٠) في تفسيره بلا سند.

(٤ ـ ٦) الماوردي (٣/ ٢٣٠) في تفسيره.

(٧) ضعيف مرفوع، صحيح موقوف: الحاكم (٢/ ٤٤٢) في المستدرك، وقد رواه الطبري (٢٠/ ٨١) (١١/ ٣٠١) في تفسيره، من طريق آخر موقوفًا.

قلت: وهو الأصح إسنادًا وعليه التعويل ـ إن شاء الله.

آتيناه الكتاب بصائر. أي ليتبصروا ﴿وَهُدًى﴾ أي من الضلالة لمن عمل بها ﴿وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لمن آمن بها. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ليذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا، ويثقوا بثوابهم في الآخرة.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ أي ما كنت يا محمد ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أي بجانب الجبل الغربيّ. قال الشاعر:

أعطاكَ من أعطى الهُدَى النبيَّا نُوراً يَزِينُ المنبرَ الغربيَّا

﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ﴾ إذ كلفناه أمرنا ونهينا، وألزمناه عهدنا. وقيل: أي إذ قضينا إلى موسى أمرك وذكرنا بخير ذكر. وقال ابن عباس[1]: ﴿إِذْ قَضَيْنَا﴾ أي أخبرنا أن أمة محمد خير الأمم. ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي من الحاضرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي من بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ حتى نسوا ذكر الله أي عهده وأمره. نظيره: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبيّنا عليه السلام ذكر في ذلك الوقت، وأن الله سيبعثه، ولكن طالت المدّة، وغلبت القسوة، فنسي القوم ذلك. وقيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهد فكفروا، فأرسلنا محمداً مجدداً للدين وداعياً الخلق إليه: وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي مقيماً كمقام موسى وشعيب بينهم. قال العَجّاج:

فباتَ حيث يدخلُ الثَّويُّ

أي الضيف المقيم. وقوله: ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي تذكرهم بالوعد والوعيد. ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي أرسلناك في أهل مكة، وآتيناك كتاباً فيه هذه الأخبار: ولولا ذلك لما علمتها.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي كما لم تحضر جانب المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين. وروى عمرو بن دينار يرفعه قال: «نودي يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني»[2] فذلك قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، وقال أبو هريرة وفي رواية عن ابن

(١) البغوي (٦/ ٢١١) في تفسيره.

(٢) مرسل: وانظر: الدر المنثور (٥/ ٢٤٦) للسيوطي.

عباس: «إن اللـه قال: يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ورحمتكم قبل أن تسترحموني»(١) قال وهب: وذلك أن موسى لما ذكر اللـه لـه فضل محمد وأمته قال: يا رب أرنيهم. فقال اللـه: «إنك لن تدركهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم» قال: بلى يا رب. فقال اللـه تعالى: «يا أمة محمد» فأجابوا من أصلاب آبائهم. فقال: «قد أجبتكم قبل أن تدعوني»(٢).

ومعنى الآية على هذا: ما كنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وأخبرناه بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا. ﴿وَلَكِن﴾ فعلنا ذلك ﴿رَّحْمَةً﴾ منّا بكم. قال الأخفش: ﴿رَّحْمَةً﴾ نصب على المصدر أي ولكن رحمناك رحمة. وقال الزجاج: هو مفعول من أجله أي فعل ذلك بك لأجل الرحمة. النحاس: أي لم تشهد قصص الأنبياء، ولا تليت عليك، ولكنا بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة. وقال الكسائي: على خبر كان؛ التقدير: ولكن كان رحمة. قال: ويجوز الرفع بمعنى هي رحمة. الزجاج: الرفع بمعنى ولكن فعل ذلك رحمة. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني العرب؛ أي لم تشاهد تلك الأخبار، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ يريد قريشاً. وقيل: اليهود. ﴿مُّصِيبَةٌ﴾ أي عقوبة ونقمة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي. وخص الأيدي بالذكر؛ لأن الغالب من الكسب إنما يقع بها. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف أي لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدّمة ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ لما بعثنا الرسل، وقيل: لعاجلناهم بالعقوبة، وبعث الرسل إزاحة لعذر الكفار كما تقدّم في «الإسراء» وآخر «طه». ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ نصب على جواب التحضيض. ﴿وَنَكُونَ﴾ عطف عليه. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدّقين. وقد احتج بهذه الآية من قال: إن العقل يوجب الإيمان والشكر؛ لأنه قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وذلك موجب للعقاب إذ تقرّر الوجوب قبل بعثة الرسل، وإنما يكون ذلك بالعقل. قال القشيري: والصحيح أن المحذوف لولا كذا لما احتيج إلى تجديد الرسل. أي هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد، ولكن تطاول العهد، فلو عذبناهم فقد يقول قائل منهم طال العهد بالرسل، ويظن أن ذلك عذر ولا عذر لهم بعد أن بلغهم خبر الرسل، ولكن أكملنا إزاحة العذر، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم. وقد حكم الله بأنه لا

(١) عزاه السيوطي (٥/ ٢٤٦) لابن مردويه، عن ابن عباس.
ورواية أبي هريرة عند النسائي (١١٣٨٢) في الكبرى، والحاكم (٣٥٣٥) في المستدرك، والطبري (٢٠/ ٨٢) في تفسيره، وإسناده صحيح إليه.

(٢) البغوي (٦/ ٢١١) في تفسيره، معلقًا غير مسند.

يعاقب عبداً **إلا بعد إكمال** البيان والحجة وبعثة الرسل.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿قَالُوا ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴾ من العصا واليد البيضاء، وأنزل عليه القرآن جملة واحدة كالتوراة، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد؛ فقال الله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ أي موسى ومحمد تعاونا على السحر. قال الكلبي[1]: بعثت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمد وشأنه فقالوا: إنا نجده في التوراة بنعته وصفته. فلما رجع الجواب إليهم ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾. وقال قوم: إن اليهود علّموا المشركين، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتي موسى، فإنه أوتي التوراة دفعة واحدة. فهذا الاحتجاج وارد على اليهود، أي أو لم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتي موسى حين قالوا في موسى وهارون هما ساحران . وقرأ الكوفيون: ﴿سِحْرَانِ ﴾ بغير ألف؛ أي الإنجيل والقرآن. وقيل: التوراة والفرقان؛ قاله الفرّاء. وقيل: التوراة والإنجيل. قاله أبو رزين. الباقون «سَاحِرَانِ» بألف[2]. وفيه ثلاثة أقاويل. أحدها: موسى ومحمد عليهما السلام. وهذا قول مشركي العرب. وبه قال ابن عباس[3] والحسن. الثاني: موسى وهارون. وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة. وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد[4]. فيكون الكلام احتجاجاً عليهم. وهذا يدلّ على أن المحذوف في قوله: ﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ لما جدّدنا بعثة الرسل؛ لأن اليهود اعترفوا بالنبوّات ولكنهم حرّفوا وغيّروا واستحقوا العقاب، فقال: قد أكملنا إزاحة عذرهم ببعثة محمد ﷺ. الثالث: عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وهذا قول اليهود اليوم. وبه قال قتادة[5]. وقيل: أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح، وذكر الإنجيل والقرآن، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين.

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا ﴾ أي قل يا محمد إذ كفرتم معاشر المشركين بهذين الكتابين ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ ليكون ذلك عذراً لكم في الكفر ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في أنهما سحران. أو فأتوا بكتاب هو أهدى من كتابي موسى ومحمد عليهما السلام. وهذا يقوي قراءة الكوفيين ﴿سِحْرَانِ ﴾. ﴿أَتَّبِعْهُ ﴾ قال الفرّاء: بالرفع؛ لأنه صفة للكتاب وكتاب نكرة. قال: وإذا جزمت وهو الوجه فعلى الشرط.

قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ

(١) مرسل بل معضل : والكلبي معروف حاله من الضعف . البغوي (٦/ ٢١٢) في تفسيره، معلقًا بلا سند .
(٢) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص١٥٦).
(٣) رجاله ثقات إلى ابن عباس : الطبري (٢٠/ ٨٤) في تفسيره.
(٤) صحيح إليهم: السابق (٢٠/ ٨٤) .
(٥) وهو قول الحسن كما سبق .

﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان، وأنه لا حجة لهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد أضل منه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي أتبعنا بعضه بعضاً، وبعثنا رسولاً بعد رسول. وقرأ الحسن: «وَصَلْنَا» مخففاً. وقال أبو عبيدة والأخفش: معنى ﴿وَصَّلْنَا﴾ أتممنا كصلتك الشيء. وقال ابن عُيَيْنة والسدّي: بيّنا(١). وقال ابن عباس(٢). وقال مجاهد: فصلنا (٣). وكذلك كان يقرؤها. وقال ابن زيد: وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا (٤). وقال أهل المعاني: وَالَيْنا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضه بعضاً: وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ونصائح ومواعظ إرادة أن يتذكروا فيفلحوا. وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض. قال الشاعر:

فقل لبني مروان ما بال ذِمّةٍ ... وحبلٍ ضعيفٍ ما يزال يُوَصَّلُ

وقال امرؤ القيس:

دريرٍ كَخُذْروفِ الوليدِ أمَرَّهُ ... تَقَلُّبُ كفَّيه بخيطٍ مُوَصَّلِ

والضمير في ﴿لَهُمُ﴾ لقريش؛ عن مجاهد(٥). وقيل: هو لليهود. وقيل: هو لهم جميعاً. والآية رد على من قال هلا أوتي محمد القرآن جملة واحدة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: يتذكرون محمداً فيؤمنوا به(٦). وقيل: يتذكرون فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم؛ قاله علي بن عيسى. وقيل: لعلهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام. حكاه النقاش.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ أخبر أن قوماً ممن أوتو الكتاب من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن؛ كعبد الله بن سَلام وسلمان. ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى، وهم أربعون رجلاً، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى: منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع(٧). كذا سماهم الماوردي وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤] قاله قتادة. وعنه أيضاً: أنها نزلت في عبد الله بن سَلاَم وتميم الداريّ والجارود العبديّ وسلمان الفارسيّ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية(٨). وعن رفاعة

(١ ـ ٤) انظرها: عند البغوي (٦/ ٢١٣) في تفسيره، وخبر مجاهد ضعيف ففيه ليث، عن مجاهد، وليث ضعيف، وخبر ابن زيد صحيح، وانظر: الطبري (٢٠/ ٨٨) في تفسيره.

(٥) صحيح إليه: الطبري (٢٠/ ٨٩) في تفسيره.

(٦) ضعيف جداً: الطبري (٢٠/ ٨٩) في تفسيره، من طريق العوفيين.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره (٦/ ٢١٣) بنحوه عن ابن عباس، وانظر: زاد المسير (٦/ ٢٢٩)، والله أعلم أي سبب كان من هذا الأسباب.

(٨) مرسل: الطبري (٢٠/ ٩٠) في تفسيره.

القرظي: نزلت في عشرة أنا أحدهم[١]. وقال عروة بن الزبير: نزلت في النجاشي وأصحابه ووجه باثني عشر رجلاً فجلسوا مع النبيّ ﷺ، وكان أبو جهل وأصحابه قريباً منهم، فآمنوا بالنبيّ ﷺ، فلما قاموا من عنده تبعهم أبو جهل ومن معه، فقال لهم: خيبكم الله من ركب، وقبحكم من وفد، لم تلبثوا أن صدقتموه، وما رأينا ركباً أحمق منكم ولا أجهل؛ فقالوا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لم نأل أنفسنا رشدا ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[٢]، وقد تقدّم هذا في «المائدة» عند قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٣] مستوفى. وقال أبو العالية: هؤلاء قوم آمنوا بمحمد ﷺ قبل أن يبعث وقد أدركه بعضهم[٣]. ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن. وقيل: من قبل محمد عليه السلام ﴿هُم بِهِ﴾ أي بالقرآن أو بمحمد عليه السلام ﴿يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ أي إذا قرئ عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ أي من قبل نزوله، أو من قبل بعثة محمد عليه السلام ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أي موحدين، أو مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن.

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبيّ ﷺ فآمن به واتبعه وصدّقه فله أجران وعبد مملوك أدّى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدّبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوّجها فله أجران»[٤] قال الشعبي للخراساني: خذ هذا الحديث بغير شيء، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة وخرجه البخاري أيضاً[٥]. قال علماؤنا: لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطباً بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين؛ فالكتابي كان مخاطباً من جهة نبيه، ثم أنه خوطب من جهة نبيّنا فأجابه واتبعه فله أجر الملتين، وكذلك العبد هو مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده، ورب الأمة لما قام بما خوطب به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياء التربية، ثم إنه لما أعتقها وتزوّجها أحياها إحياء الحرّية التي ألحقها فيه بمنصبه، فقد قام بما أمر فيها، فأجر كل واحد منهما أجرين. ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه، الحسنة بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور. ولذلك قيل: إن العبد الذي يقوم بحق سيده وحق الله تعالى أفضل من الحرّ، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر

(١) صحيح: الهيثمي (٧/ ٨٨) في المجمع وقال: «رجاله ثقات».
قلت: وانظر: الطبري (٢٠/ ٨٩) في تفسيره.
(٢) مرسل: وسبق في سورة المائدة عند الآية (٨٣).
(٣) انظر: فتح القدير (٤/ ٢٥٠) للشوكاني.
(٤، ٥) متفق عليه: البخاري (٩٧) في العلم، ومسلم (١٥٤) في الإيمان.

وغيـره. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قـال رسول الله ﷺ: «للعبـد المملوك المصلح أجران»(١)، والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجـهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحـببت أن أموت وأنا مملوك. قال سعيد بن المسيّب: وبلغنا أن أبا هريرة لم يكن يحج حتى ماتت أمّه لصحبتها. وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال قال رسـول الله ﷺ: «نعمّا للمملوك أن يُتـوفَّى يحسن عبادة الله وصحـابة سيده نعمّا له»(٢).

الثانية: قولـه تعالى: ﴿صَبَرُوا﴾ عام في صبـرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون. درأت إذا دفعت، والدرء الدفع. وفي الحديث: «ادرؤوا الحدود بالشبهات»(٣). قيل: يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى. وقيل: يدفعون بالتوبة والاستغفـار الذنوب؛ وعلى الأوّل فهو وصف لمكارم الأخلاق؛ أي من قال لـهم سوءاً لاينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه. فهذه آية مهادنة، وهي من صدر الإسلام، وهي مما نسختها آية السيف وبقي حكمـها فيما دون الكفـر يتعاطاه أمة محـمد ﷺ إلى يوم القيامة. ومنـه قولـه عليه السلام لمعاذ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالقِ الناس بخلق حسن»(٤) ومن الخلق الحسن دفع المكروه والأذى، والصبر على الجفا بالإعراض عنه ولين الحديث.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أثنى عليهم بأنهم ينفقون من أموالـهم في الطاعات وفي رسم الشرع، وفي ذلك حض على الصدقات. وقـد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة؛ ثم مدحهم أيضـاً على إعراضهم عن اللغو؛ كمـا قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي إذا سمعوا ما قال لـهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا عنه؛ أي لم يشتغلوا به ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي متاركـة؛ مثل قولـه: ﴿إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي لنا ديننا ولكم دينكم. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي أَمَنٌ لكم منا فإنا لا نحاربكم، ولا نسـابكم، وليس من التحية في شيء. قال الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تـعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ قال الـزجاج: أجمـع المسلمون على أنهـا نزلت في أبي طالب.

قلت: والصواب أن يقال أجمع جل المفسرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبيّ ﷺ،

---

(١) متفق عليه : وقد سبق.

(٢) متفق عليه : البخاري (٢٥٤٩) في الخصومات ، ومسلم (٦٦٧) في الإيمان .

(٣) ضعيف : الترمذي (١٤٢٤) في الحدود ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وضعفه الألباني هناك ، و (٣٥٧٠) في المشكاة .

(٤) حسن : وقد سبق .

وهو نص البخاري ومسلم[١]، وقد تقدّم ذلك في «التوبة». وقال أبو روق قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ إشارة إلى العباس[٢]. وقاله قتادة. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ قال مجاهد: لمن قدّر له أن يهتدي. وقيل: معنى ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي من أحببت أن يهتدي. وقال جبير بن مطعم: لم يسمع أحد الوحي يلقى على النبيّ ﷺ إلا أبا بكر الصدّيق فإنه سمع جبريل وهو يقول: يا محمد اقرأ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ هذا قول مشركي مكة. قال ابن عباس: قائل ذلك من قريش الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشيّ قال للنبيّ ﷺ: إنا لنعلم أن قولك حقّ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك، ونؤمن بك، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا يعني مكة لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقة لنا بهم[٣]. وكان هذا من تعللاتهم؛ فأجاب الله تعالى عما اعتلّ به فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ أي ذا أمن. وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمّنهم بحرمة البيت، ومنع عنهم عدوّهم، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم. والتخطف الانتزاع بسرعة؛ وقد تقدّم. قال يحيى بن سلام يقول: كنتم آمنين في حرمي، تأكلون رزقي، وتعبدون غيري، أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم بي. ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي يُجمع إليه ثمراتُ كل أرض وبلد؛ عن ابن عباس وغيره. يقال: جبى الماء في الحوض أي جمعه. والجابية الحوض العظيم. وقرأ نافع: «تُجْبَى» بالتاء[٤]؛ لأجل الثمرات. الباقون بالياء؛ لقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ واختاره أبو عبيد. قال: لأنه حال بين الاسم المؤنث وبين فعله حائل، وأيضاً فإن الثمرات جمع، وليس بتأنيث حقيقي. ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعقلون؛ أي هم غافلون عن الاستدلال، وأن من رزقهم وأمّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم. و﴿رِّزْقًا﴾ نصب على المفعول من أجله. ويجوز نصبه على المصدر بالمعنى؛ لأن معنى: «تُجْبَى» ترزق. وقرئ «يُجْنَى» بالنون من الجنا، وتعديته بإلى كقولك يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافَة[٥].

---

(١) متفق عليه: وقد سبق عند الآية (١١٣) من سورة التوبة.

(٢) هذا مخالف للإجماع، والأول أصح، وقد روى عن قتادة تفسير أنه قال: ذكر لنا أنها نزلت في أبي طالب، وانظر: النكت والعيون (٣/ ٢٣٤).

(٣) ضعيف: فيه عنعنة ابن جريج وهو مدلس. الطبري (٢٠/ ٥٩) في تفسيره، ورواه النسائي (٤٠٥) في التفسير من طريق منقطع، عن عمرو بن شعيب، عن ابن عباس به.

(٤) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥٦).

(٥) الخافة: وعاء الحب، وسميت بذلك لأنها وقاية له، وهي أيضًا العيبة، وتُطلق على الجبة (الثوب) التي يلبسها العسال. وانظر: النهاية (٢/ ٨٨) لابن الأثير.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ بيّن لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب أن الخوف في ترك الإيمان أكثر؛ فكم من قوم كفروا ثم حلّ بهم البوار، والبطر الطغيان بالنعمة؛ قاله الزجاج ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ أي في معيشتها فلما حذف «في» تعدّى الفعل؛ قاله المازني. الزجاج كقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] الفراء: هو منصوب على التفسير، قال: كما تقول: أبطرت مالك وبطرته ونظيره عنده: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] وكذا عنده: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤] ونصب المعارف على التفسير محال عند البصريين؛ لأن معنى التفسير والتمييز أن يكون واحداً نكرة يدلّ على الجنس. وقيل: انتصب بـ﴿بَطِرَتْ﴾ ومعنى: ﴿بَطِرَتْ﴾ جهلت؛ فالمعنى: جهلت شكر معيشتها. ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لم تسكن بعد إهلاك أهلها إلا قليلاً من المساكن وأكثرها خراب. والاستثناء يرجع إلى المساكن أي بعضها يسكن؛ قاله الزجاج. واعترض عليه؛ فقيل: لو كان الاستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل؛ لأنك تقول: القوم لم تضرب إلا قليل؛ ترفع إذا كان المضروب قليلاً، وإذا نصبت كان القليل صفة للضرب؛ أي لم تضرب إلا ضرباً قليلاً، فالمعنى إذاً: فتلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون ومن مرّ بالطريق يوماً أو بعض يوم، أي لم تُسكن من بعدهم إلا سكوناً قليلاً. وكذا قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافر أو مارّ الطريق يوماً أو ساعة. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي لما خلّفوا بعد هلاكهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ أي القرى الكافر أهلها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ قرئ بضم الهمزة وكسرها لإتباع الجر يعني مكة. ﴿رَسُولًا﴾ يعني محمدا ﷺ. وقيل: ﴿فِي أُمِّهَا﴾ يعني في أعظمها ﴿رَسُولًا﴾ ينذرهم. وقال الحسن: في أوائلها.

قلت: ومكة أعظم القرى لحرمتها وأولها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] وخصت بالأعظم لبعثة الرسول فيها؛ لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يسكنون المدائن وهي أمّ ما حولها. وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة «يوسف».

قوله تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ ﴿يَتْلُو﴾ في موضع الصفة أي تاليا أي يخبرهم أن العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ﴾ سقطت النون للإضافة مثل: ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ أي لم أهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم وفي هذا بيان لعدله وتقدّسه عن الظلم. أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم. ونزّه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين، كما قال عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ

﴿رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] فنصّ في قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ على أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً لهم منه، وأن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم، دلّ على ذلك بحرف النفي مع لامه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ يا أهل مكة ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي تتمتعون بها مدة حياتكم، أو مدةً في حياتكم، فإما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم. ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي أفضل وأدوم، يريد الدار الآخرة وهي الجنة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الباقي أفضل من الفاني. قرأ أبو عمرو: «يَعْقِلُونَ» بالياء. الباقون بالتاء على الخطاب[1] وهو الاختيار لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ يعني الجنة وما فيها من الثواب. ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فأعطي منها بعض ما أراد. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي في النار، ونظيره قوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]. قال ابن عباس: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وفي أبي جهل بن هشام[2]. وقال مجاهد: نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل[3]. وقال محمد ابن كعب: نزلت في حمزة وعليّ، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد[4]. وقيل: في عمار والوليد بن المغيرة؛ قاله السدي[5]. قال القشيري: والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم. الثعلبي: وبالجملة فإنها نزلت في كل كافر متع في الدنيا بالعافية والغنى وله في الآخرة النار، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله في الآخرة الجنة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٧٦﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٧٨﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي ينادي الله يوم القيامة هؤلاء المشركين ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء[6]؛ قاله الكلبي. وقال قتادة: هم الشياطين[7]. ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾

---

(١) قرأتان متواترتان: تقريب النشر (ص١٠٤).

(٢) لم أهتد إليه مسندًا، والمسند هو التالي.

(٣) فيه أبان بن تغلب، وهو ثقة تكلموا فيه للتشيع، وروي له مسلم، وهذا مرسل، وانظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٩٨)، ورواه الواحدي (ص٢٨٤) في أسباب النزول.

(٤) البغوي (٦/ ٢١٧) في تفسيره غير مسند.

(٥) الواحدي (ص٢٨٤) في أسباب النزول، عن السدي معلقًا، ووصله ابن أبي حاتم (١١/ ٣٣٢) في تفسيره.

(٦، ٧) فتح القدير (٤/ ٢٥٥) للشوكاني.

أي دعوناهم إلى الغي فقيل لهم: أغويتموهم ؟ قالوا: ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ يعنون أضللناهم كما كنا ضالين. ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبرأ بعضنا من بعض، والشياطين يتبرؤون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرؤون ممن قبل منهم؛ كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ﴾ أي للكفار ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي استغيثوا بآلهتكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي استغاثوا بهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ قال الزجاج: جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى، ولما صاروا إلى العذاب. وقيل: أي لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم. وقيل المعنى: ودّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة. ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي يقول الله لهم: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتي. ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي خفيت عليهم الحجج؛ قاله مجاهد[1]؛ لأن الله قد أعذر إليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة. و﴿الْأَنْبَاءُ﴾ الأخبار؛ سَمَّى حججهم أنباء لأنها أخبار يخبرونها. ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجج؛ لأن الله تعالى أدحض حججهم؛ قاله الضحاك. وقال ابن عباس: ﴿لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا ينطقون بحجة. وقيل: ﴿لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ في تلك الساعة، ولا يدرون ما يجيبون به من هول تلك الساعة، ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وقال مجاهد: لا يتساءلون بالأنساب[2]. وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل من ذنوبه شيئاً؛ حكاه ابن عيسى.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ أي من الشرك ﴿وَآمَنَ﴾ أي صدق ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أدى الفرائض وأكثر من النوافل ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي من الفائزين بالسعادة. وعسى من الله واجبة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم للشفاعة؛ أي الاختيار إلى الله تعالى في الشفعاء لا إلى المشركين، وقيل: هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني نفسه زعم، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف[3]. وقيل: هو جواب اليهود إذ قالوا: لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به. قال ابن عباس: والمعنى؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته، وقال يحيى بن سلاّم: والمعنى: وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوّته. وحكى النقاش: أن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعني محمداً ﷺ، ويختار الأنصار لدينه.

قلت: وفي كتاب البزّار مرفوعاً صحيحاً عن جابر: «إن الله تعالىٰ اختار أصحابي على العالمين

(١، ٢) صحيحان إليه: الطبري (٢٠/ ١٠٠) في تفسيره.

(٣) ذكره الواحدي (ص٢٨٤) في أسباب النزول معلقًا بلا سند.

سوى النبيين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً فجعلهم أصحابي وفي أصحابي كلهم خير واختار أمّتي على سائر الأمم واختار لي من أمتي أربعة قرون»[1].

وذكر سفيان بن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبّه عن أبيه في قوله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ قال: من النعم الضأن، ومن الطير الحمام. والوقف التام على ﴿يَخْتَارُ﴾. وقال عليّ ابن سليمان: هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب بـ﴿يَخْتَارُ﴾ لأنها لو كانت في موضع نصب لم يعد عليها شيء. قال وفي هذا رد على القدرية. قال النحاس: التمام ﴿وَيَخْتَارُ﴾ أي ويختار الرسل.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي ليس يرسل من اختاروه هم. قال أبو إسحاق: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ هذا الوقف التام المختار، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب بـ﴿يَخْتَارُ﴾ ويكون المعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخِيرَة. قال القشيري: الصحيح الأوّل لإطباقهم على الوقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. قال المهدوي: وهو أشبه بمذهب أهل السنة و﴿مَا﴾ من قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفي عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيء سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل. الزمخشري: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ بيان لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لأن معناه يختار ما يشاء؛ ولهذا لم يدخل العاطف، والمعنى؛ إن الخيرة لله تعالى في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها أي ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه. وأجاز الزجاج وغيره أن تكون ﴿مَا﴾ منصوبة بـ﴿يَخْتَارُ﴾. وأنكر الطبريّ أن تكون ﴿مَا﴾ نافية؛ لئلا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل، ولأنه لم يتقدّم كلام بنفي. قال المهدوي: ولا يلزم ذلك؛ لأن ﴿مَا﴾ تنفي الحال والاستقبال كليس ولذلك عملت عملها؛ ولأن الآي كانت تنزل على النبي ﷺ على ما يسأل عنه، وعلى ما هم مصرون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص. وتقدير الآية عند الطبري: ويختار لولايته الخيرة من خلقه؛ لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ للهداية من خلقه من سبقت له السعادة في علمه، كما اختار المشركون خيار أموالهم لآلهتهم، فـ﴿مَا﴾ على هذا لمن يعقل وهي بمعنى الذي و﴿الْخِيَرَةُ﴾ رفع بالابتداء و﴿لَهُمُ﴾ الخبر والجملة خبر ﴿كَانَ﴾. وشبهه بقولك: كان زيد أبوه منطلق وفيه ضعف؛ إذ ليس في الكلام عائد يعود على اسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد. وقد روي معنى ما قاله الطبري عن ابن عباس[2]. قال الثعلبي: و﴿مَا﴾ نفي أي ليس لهم الاختيار على الله. وهذا أصوب كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. قال محمود الورّاق:

توكّل على الرحمن في كل حاجة ... أردتَ فإن الله يقضي ويقدِر
إذا ما يرِدْ ذو العرش أمراً بعبده ... يصبْه وما للعبد ما يتخير
وقد يهلك الإنسانُ من وجه حِذره ... وينجو بحمد الله من حيث يحذر

وقال آخر:

العبدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ ... والدّهرُ ذو دُولٍ والرِّزْقُ مقسومُ
والخيرُ أجمعُ فيما اختار خالقُنا ... وفي اختيار سواه اللّومُ والشُّومُ

(١) حسن: الهيثمي (١٠/ ١٦) في مجمع الزوائد وعزاه للبزار، وقال: «رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف».
(٢) ضعيف: الطبري (٢٠/ ١٠٢) من طريق العوفيين.

قال بعض العلمـاء لا ينبغي لأحد أن يقـدُم على أمر من أمور الدنيـا حتى يسأل الله الخـيرة في ذلك؛ بأن يصلي ركعتين صـلاة الاستخارة، يقرأ في الركعة الأولـى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وفي الركعة الـثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ واختار بعض المشايخ أن يـقرأ في الركعة الأولى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ الآية، وفي الركعة الثانية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الاحزاب: ٣٦] وكلٌّ حسن. ثم يدعو بهـذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عـبد الله قال: كان النبي ﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلّمنا السـورة من القرآن؛ يقول: «إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غـير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقـدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت عـلام الغيوب الـلهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خـير لي في ديني ومـعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فَاقْدُره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنيـاي ومعاشي وعاقبـة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فـاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به» (١) قال: ويسمي حاجـته. وروت عائشة عن أبي بكر رضي الله عنهـما: أن النبي ﷺ كان إذا أراد أمـراً قال: «اللهم خِرْ لي واخـتر لي»(٢). وروى أنس أن النبي ﷺ قال: يا أنس إذا هممت بأمـر فاستخر ربك فيه سـبع مرات ثم انظر إلى ما يسبق قلبك فإن الخير فيه»(٣). قال العلماء: وينبغي له أن يفرّغ قلبه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلاً إلى أمر من الأمور، فـعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإن الخيـر فيه إن شاء الله. وإن عزم على سفر فيتوخى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين اقتداء برسول الله ﷺ. ثم نزه نفسه سبحانه بقوله الحق؛ فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي تنزيهاً. ﴿وَتَعَالَى﴾ أي تقدّس وتمجد ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون. وقرأ ابن محيصن وحميد: «تَكُنُّ» بفتح التاء وضم الكاف. وقد تقدم هذا في «النمل». تمدح سبحانه بأنه عـالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تقدم معناه، وأنه المنفرد بالوحـدانية، وأن جميع المحامد إنما تجب له، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾

(١) صحيح: البخاري (١١٦٦) في التهجد.

(٢) ضعيف: الترمذي (٣١٥٦) في الدعوات، وضعفه الألباني هناك، وانظر: ضعيف الجامع (٤٣٣٥)، وابن السني (٥٩٧) بترقيمي وتحقيقي ـ وضعفه هناك.

(٣) ضعيف: ابن السني (٥٩٨) بترقيمي وتحقيقي ـ وقال النووي (٣٥٨): «وإسناده غريب، فيه مَنْ لم نعرفهم»، وقال السيوطي (٣٧/ أ) و (٣٧/ ب) في تحفة الأبرار: «قال العراقي: هم معروفون ـ يعني رواته ـ لكن فيهم من هو معروف بالضعف الشديد».

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي دائماً.

ومنه قول طرفة:

لعمرُك ما أمري عليّ بغُمَّةٍ نهاري ولا ليلي عليّ بسَرْمد

بيّن سبحانه أنه مهد أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه. ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ أي بنور تطلبون فيه المعيشة. وقيل: بنهار تبصرون فيه معايشكم وتصلح فيه الثمار والنبات. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وقبول. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي تستقرّون فيه من النصب. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنتم فيه من الخطأ في عبادة غيره؛ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على إيتاء الليل والنهار غيره فلمَ تشركون به. ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي فيهما. وقيل: الضمير للزمان وهو الليل والنهار. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي لتطلبوا من رزقه فيه أي في النهار فحذف. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين، ينادون مرة فيقال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فيدعون الأصنام فلا يستجيبون، فتظهر حيرتهم، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون. وهو توبيخ وزيادة خزي. والمناداة هنا ليست من الله؟ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤] لكنه تعالى يأمر مَن يوبخهم ويبكتهم، ويقيم الحجة عليهم في مقام الحساب. وقيل: يحتمل أن يكون من الله وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ حين يقال لهم ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وقال: ﴿شُرَكَائِيَ﴾ لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي نبياً؛ عن مجاهد[1]. وقيل: هم عدول الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم في الدنيا. والأوّل أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وشهيد كل أمة رسولها الذي يشهد عليها. والشهيد الحاضر. أي أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم. ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي حجتكم. ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي علموا صدق ما جاءت به الأنبياء. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي ذهب عنهم وبطل. ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة تعبد.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ

(١) صحيح إليه: ولكن بلفظ: رسولا كما في تفسير الطبري (٢٠/ ١٠٥)، وكذا رواه ابن أبي حاتم (١١/ ٣٤٢) في تفسيره.

﴿ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ لما قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ [القصص: ٦٠] بيّن أن قارون أوتيها واغتر بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون، ولستم أيها المشركون بأكثر عدداً ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه. قال النّخعيّ وقتادة وغيرهما (١): كان ابن عم موسى لَحًا (٢)؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، وموسى بن عمران بن قاهث. وقال ابن إسحاق: كان عمّ موسى لأب وأمّ. وقيل: كان ابن خالته. ولم ينصرف للعجمة والتعريف. وما كان على وزن فاعول أعجمياً لا يحسن فيه الألف واللام لم ينصرف في المعرفة وانصرف في النكرة، فإن جمعت فيه الألف واللام انصرف إن كان اسماً لمذكر نحو طاوس وراقود. قال الزجاج: ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بغيه أنه زاد في طول ثوبه شبراً؛ قاله شهر بن حوشب. وفي الحديث: «لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره بطراً»(٣) وقيل: بغيه كفره بالله عز وجل؛ قاله الضحاك. وقيل: بغيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده؛ قاله قتادة. وقيل: بغيه نسبته ما أتاه لله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته؛ قاله ابن بحر. وقيل: بغيه قوله إذا كانت النبوّة لموسى والمذبح والقربان في هارون فما لي فروي أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة لموسى والحبورة لهارون؛ يقرب القربان ويكون رأساً فيهم، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه، وجد قارون في نفسه وحسدهما. فقال لموسى: الأمر لكما وليس لي شيء إلى متى أصبر. قال موسى؛ هذا صنع الله. قال: والله لا أصدقنك حتى تأتي بآية؛ فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد منهم بعصاه، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيّهم بالليل، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغي وهو الظلم. وقال يحيى بن سلاّم وابن المسيّب: كان قارون غنياً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم. وقول سابع: روي عن ابن عباس قال: لما أمر الله تعالى برجم الزاني عمد قارون إلى امرأة بغيّ وأعطاها مالاً، وحملها على أن ادعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها؛ فعظم على موسى ذلك وأحلفها بالله الذي فلق البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت. فتداركها الله فقالت: أشهد أنك بريء، وأن قارون أعطاني مالاً، وحملني على أن قلت ما قلت، وأنت الصادق وقارون الكاذب. فجعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه. فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرض خذيه؛ وهي تأخذه شيئاً فشيئاً

(١) صحيح إليهما: تفسير الطبري (٢٠/ ١٠٦)، وابن أبي حاتم (١١/ ٣٤٥) في تفسيره عن قتادة، وأشار إلى رواية إبراهيم النخعي هذه.

(٢) لحًا: لازق النسب، قصد: ابن عمه موسى أخي أبيه. اللسان «لحح».

(٣) متفق عليه: البخاري (٥٧٨٨) في اللباس، ومسلم (٢٠٨٧) في اللباس، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وهو يستغيث: يا موسى إلى أن ساخ في الأرض هو وداره وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه [١]. وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى: استغاث بك عبادي فلم ترحمهم، أما أنهم لو دعوني لوجدوني قريباً مجيباً. ابن جريج: بلغنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة [٢]. وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج: حدّثني إبراهيم بن راشد قال: حدّثني داود بن مهران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال: لقي قارون يونس في ظلمات البحر، فنادى قارون يونس، فقال: يا يونس تب إلى الله فإنك تجده عند أول قدم ترجع بها إليه. فقال يونس: ما منعك من التوبة؟ فقال: إن توبتي جعلت إلى ابن عمي فأبى أن يقبل مني[٣]. وفي الخبر: إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفخ إسرافيل في الصور. والله أعلم. قال السّدي: وكان اسم البغي سبرتا، وبذل لها قارون ألفي درهم. قتادة: وكان قطع البحر مع موسى وكان يسمى المنوّر من حسن صورته في التوراة، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السامري.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ قال عطاء: أصاب كثيراً من كنوز يوسف عليه السلام[٤]. وقال الوليد بن زروان[٥]: إنه كان يعمل الكيمياء[٦]. ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ ﴿إِنَّ﴾ واسمها وخبرها في صلة ﴿مَا﴾ و«ما» مفعولة ﴿آتَيْنَاهُ﴾. قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول ما أقبح ما يقول الكوفيون في الصلات؛ إنه لا يجوز أن تكون صلة الذي وأخواته ﴿إِنَّ﴾ وما عملت فيه، وفي القرآن ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾. وهو جمع مِفتح بالكسر وهو ما يفتح به. ومن قال مفتاح قال مفاتيح. ومن قال هي الخزائن فواحدها مَفتح بالفتح. ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ أحسن ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة أي تميلهم بثقلها، فلما انفتحت التاء دخلت الباء. كما قالوا هو يذهب بالبؤس ويُذهِب البؤس. فصار ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ فجعل العصبة تنوء أي تنهض متثاقلة؛ كقولك قم بنا أي اجعلنا نقوم. يقال: ناء ينوء نوءاً إذا نهض بثقل. قال الشاعر:

تنوء بأُخراها فَلأْياً قِيامُها وتَمشِي الهُوَيني عن قريبٍ فَتَبْهَرُ

---

(١) حسن إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما: تفسير الطبري (٢٠/ ١١٧)، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد ابن جبير عنه به.
ورواه من طرق أخرى عديدة وهذا هو أصح إسناد فيها والطريق الآخر يشهد له.
وانظر: تفسير الطبري (٢٠/ ١١٧).

(٢) انظر قوله عند الطبري (٢٠/ ١١٩) في تفسيره، ونحوه عن مالك بن دينار.

(٣) منكر باطل، ولا يصح: في الحديث مروان بن جناح: اتهمه ابن حبان على تساهله، وقيل: ليس بقوى، وفيه عنعنة الوليد وهو يدلس تدليس التسوية، وهو مقطوع على يونس بن ميسرة بن حلبس الجيلاني، وهو من الطبقة الوسطى من التابعين، وهو ثقة عابد.
ورواه ابن أبي الدنيا برقم (٣٥) في الفرج بعد الشدة.

(٤) ضعيف: ابن أبي حاتم (١١/ ٣٤٧) في تفسيره من طريق عثمان بن عطاء، عن أبيه وعثمان ضعيف.

(٥) في المطبوعات: «مروان»، والصواب ما أثبته كما في المصدر التالي.

(٦) ذكره ابن أبي حاتم (١١/ ٣٤٨) في تفسيره.

وقال آخر:

أخذتُ فلم أملك ونُوتُ فلم أقُمْ كأنّيَ من طول الزمان مقيَّدُ

وأناءني إذا أثقلني؛ عن أبي زيد. وقال أبو عبيدة: قوله ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ مقلوب، والمعنى لتنوء بها العصبة أي تنهض بها. أبو زيد: نؤت بالحمل إذا نهضت. قال الشاعر:

إنا وجدنا خَلَفًا بئس الخَلَف عبداً إذا ما ناء بالحمل وقف

والأوّل معنى قول ابن عباس وأبي صالح السدي. وهو قول الفرّاء واختاره النحاس. كما يقال: ذهبت به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وأنأتُهُ؛ فأما قولهم: له عندي ما ساءه وناءه فهو إتباع كان يجب أن يقال وأناءه. ومثله هنأني الطعام ومرأني، وأخذه ما قدُم وما حدُث. وقيل: هو مأخوذ من النأي وهو البعد. ومنه قول الشاعر:

يَنأَوْنَ عنا وما تَنْأى مودتُهم فالقلبُ فيهم رهينٌ حيثما كانوا

وقرأ بديل بن ميسرة: «لَيَنُوءُ» بالياء؛ أي لينوء الواحد منها أو المذكور فحمل على المعنى. وقال أبو عبيدة: قلت لرؤبة بن العجاج في قوله:

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ كأنّه في الجلدِ تَوْليعُ البَهَقْ

إن كنت أردت الخطوط فقل كأنها، وإن كنت أردت السواد والبلق فقل كأنهما. فقال: أردت كل ذلك. واختلف في العصبة وهي الجماعة التي يتعصب بعضهم لبعض على أحد عشر قولاً: الأوّل: ثلاثة رجال؛ قاله ابن عباس(١). وعنه أيضاً من الثلاثة إلى العشرة(٢). وقال مجاهد: العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر(٣). وعنه أيضاً: ما بين العشرة إلى الخمسة عشر(٤). وعنه أيضاً: من عشرة إلى خمسة. ذكر الأوّل الثعلبي، والثاني القشيري والماوردي، والثالث المهدوي. وقال أبو صالح والحكم بن عُتَيبة وقتادة والضحاك: أربعون رجلاً(٥). السدّي ما بين العشرة إلى الأربعين. وقاله قتادة أيضاً. وقال عكرمة: منهم من يقول أربعون، ومنهم من يقول سبعون. وهو قول أبي صالح إن العصبة سبعون رجلاً(٦)؛ ذكره الماوردي. والأوّل ذكره عنه الثعلبي. وقيل: ستون رجلاً. وقال سعيد بن جبير: ست أو سبع(٧). وقال عبد الرحمن بن زيد: ما بين الثلاثة والتسعة وهو النفر(٨). وقال الكلبي: عشرة لقول إخوة يوسف ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨] وقاله مقاتل. وقال خيثمة: وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلاً غراء محجلة، وأنها لتنوء بها من ثقلها، ما يزيد مفتح منها على إصبع، لكل مفتح منها كنز مال، لو قسم ذلك الكنز على أهل البصرة لكفاهم. قال مجاهد: كانت المفاتيح من جلود الإبل(٩). وقيل: من جلود البقر لتخف عليه، وكانت تحمل معه إذا ركب على سبعين بغلاً فيما ذكره القشيري. وقيل: على أربعين بغلاً. وهو قول

(١، ٢) ضعيف: فيه جابر بن نوح، وهو ضعيف، والضحاك، عن ابن عباس وهو منقطع ورواه الطبري (٢٠/ ١٠٨) في تفسيره.

(٣، ٤) صحيح إليه: السابق (٢٠/ ١٠٩).

(٥) صحيح إليهم: السابق (٢٠/ ١٠٨).

(٦ ـ ٨) تفسير بن أبي حاتم (١١/ ٣٤٨، ٣٤٩)، والطبري (٢٠/ ١٠٩) في تفسيره.

(٩) تفسير الطبري (٢٠/ ١٠٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٣٤٨).

الضحاك. وعنه أيضاً: إن مفاتحه أوعيته[١]. وكذا قال أبو صالح: إن المراد بالمفاتح الخزائن[٢]؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ أي المؤمنون من بني إسرائيل؛ قاله السديّ. وقال يحيى بن سلاّم: القوم هنا موسى. وقال الفراء: وهو جمع أريد به واحد كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وإنما هو نعيم بن مسعود[٣] على ما تقدّم. ﴿لا تَفْرَحْ﴾ أي لا تأشر ولا تبطر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي البطرين؛ قاله مجاهد والسديّ[٤]. قال الشاعر:

ولستُ بِمِفْرَاحٍ إذا الدهرُ سَرَّنِي ولا ضارعٌ في صرفه المتقلب

وقال الزجاج: المعنى لا تفرح بالمال فإنّ الفَرِح بالمال لا يؤدّي حقّه. وقال مبشر بن عبد الله: لا تفرح لا تفسد. قال الشاعر:

إذا أنتَ لم تبرح تؤدّي أمانةً وتحملُ أخرى أفرحتك الودائعُ

أي أفسدتك. وقال أبو عمرو: أفرحه الدين أثقله. وأنشده:

إذا أنت... البيت

وأفرحه سره فهو مشترك. قال الزجاج: والفرحين والفارحين سواء. وفرّق بينهما الفراء فقال: معنى الفرحين الذين هم في حال فرح، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل. وزعم أن مثله طمع وطامع وميّت ومائت. ويدلّ على خلاف ما قال قول الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ولم يقل مائت. وقال مجاهد أيضاً: معنى ﴿لا تَفْرَحْ﴾ لا تبغ ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي الباغين[٥]. وقال ابن بحر: لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين.

قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ اختلف فيه؛ فقال ابن عباس والجمهور: لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها[٦]، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها. فالكلام على هذا التأويل شدّة في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه[٧]، ونظرك لعاقبة دنياك. فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه. وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدّة؛ قاله ابن عطية.

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله: احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل

(١، ٢) الطبري (٢٠/ ١٠٧) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٣٤٨) في تفسيره.

(٣) عند الآية (١٧٣) من سورة آل عمران.

(٤) ضعيف إلى مجاهد، وحسن إلى السدي: الطبري (٢٠/ ١١١) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٣٥٠) في تفسيره.

(٥) فيه العوام بن حوشب وهو ضعيف: الطبري (٢٠/ ١١١) في تفسيره.

(٦) منقطع بين الأعمش وابن عباس ـ رضي الله عنهما: الطبري (٢٠/ ١١٢) في تفسيره، وقد رواه ابن أبي حاتم (١١/ ٣٥٢) في تفسيره، عن الأعمش، عن رجل، عن ابن عباس، والأعمش مدلس، فكيف وقد أبهم الراوي وعنعن؟ وروى أيضًا من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.

(٧) ذكره الطبري (٢٠/ ١١٢، ١١٣) في تفسيره.

لآخرتك كـأنك تموت غدا [١]. وعن الحسن: قـدّم الفضل، وأمسـك ما يبلغ[٢]. وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف[٣]. وقيل: أراد بنصيبه الكفن. فهذا وعظ متـصل؛ كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن. ونحو هذا قول الشاعر:

نَصيبُك مما تجمعُ الدهرَ كلَّه ... رداءان تُلْوَى فيهما وحَنُوط

وقال آخر:

وهي القناعة لا تبغي بها بـدلا ... فيها النعيم وفيـهـا راحـة البـدن

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

قال ابن العربي: وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا وياما أحسن هذا. ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أطع الله واعبده كما أنعم عليك. ومنه الحديث: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه»[٤]، وقيل: هو أمر بصلة المساكين. قال ابن العربي: فيه أقوال كثيرة جمـاعها استعمال نعم الله في طاعة الله. وقال مـالك: الأكل والشرب من غير سرف. قال ابن العـربي: أرى مالكاً أراد الرد على الغـالين في العبادة والتـقشف؛ فإن الـنبي ﷺ كان يحب الحلواء، ويشـرب العسل، ويسـتعمل الـشواء، ويشرب المـاء البارد. وقد مـضى هذا المعنى في غـير موضع. ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا تعمل بالمعاصي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ يعني علم التوراة. وكان فـيما روي من أقرأ الناس لها، ومن أعلمهم بها. وكـان أحد العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للـميقات. وقال ابن زيد: أي إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني[٥]. فقوله: ﴿عِندِي﴾ معناه إن عندي أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحـقاقي إياها لفضل فيّ. وقيل: أوتيته على علم مـن عندي بوجوه التجارة والمكاسب؛ قاله علي بن عيـسى. ولم يعلم أن الله لو لم يسهل له اكتسابها لما اجـتمعت عنده. وقال ابن عباس[٦]: على علم عندي بصنعة الذهب. وأشار إلى علم الكيمياء. وحكى النقاش: أن موسى عليه السلام علمه الثلث من صنعة الكيميـاء، ويوشع الثلث، وهارون الثلث، فخدعهما قارون وكان على إيمانه حتى علـم ما عندهما وعـمل الكيميـاء، فكثرت أمواله. وقـيل: إن موسى علم الكيمـياء ثلاثة؛ يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا، وقـارون، واختار الزجاج القـول الأول، وأنكر قول من قال إنه يعمل الكيمياء. قال: لأن الكيمياء باطل لا حقـيقة له. وقيل: إن موسى علّم أخته علم الكيمياء،

---

(١) سبق تخريجه. وفيه (اعمل) بدل (احرث).
(٢) ضعيف: الطبري (٢٠/ ١١٣) في تفسيره.
(٣) انظر: البحر المحيط (٧/ ١٣٣) لأبي حيان ـ رحمه الله.
(٤) صحيح: مسلم (٨) في الإيمان، عن عمر ـ رضي الله عنه.
(٥) صحيح إليه أو حسن: الطبري (٢٠/ ١١٣) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٣٥٥) في تفسيره.
(٦) لم أجده مسنداً.

وكانت زوجة قارون، وعلمت أخت موسى قارون؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي بالعذاب. ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي الأمم الخالية الكافرة. ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي للمال، ولو كان المال يدلّ على فضل لما أهلكهم. وقيل: القوة الآلات، والجمع الأعوان والأنصار، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون؛ أي ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ﴾ من القرون ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يسألون سؤال استعتاب كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤]، ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] قاله الحسن. وقال مجاهد: لا تسأل الملائكة غداً عن المجرمين؛ فإنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون[١]. وقال قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، بل يدخلون النار بلا حساب[٢]. وقيل: لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا في الدنيا. وقيل: أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسألتهم عن ذنوبهم.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي على بني إسرائيل فيما رآه زينة من متاع الحياة الدنيا من الثياب والدواب والتجمل في يوم عيد. قال الغزنوي: في يوم السبت.

قوله تعالى: ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ أي مع زينته. قال الشاعر:

إذا ما قلوبُ القومِ طارت مخافةً من الموت أرسوا بالنفوس المواجد

أي مع النفوس. كان خرج في سبعين ألفاً من تَبَعه، عليهم المعصفَرات، وكان أوّل من صُبِغ له الثياب المعصفَرة. قال السدي: مع ألف جوار بيض على بغال بيض بسروج من ذهب على قُطُف الأرْجُوان[٣]. قال ابن عباس: خرج على البغال الشهب[٤]. مجاهد: على براذين بيض عليها سروج الأُرْجُوان، وعليهم المعصفَرات، وكان ذلك أوّل يوم رؤي فيه المعصفَر[٥]. قال قتادة: خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر، منها ألف بغل أبيض عليها قُطُف حمر[٦]. قال ابن جريج: خرج على بغلة شهباء عليها الأُرْجُوان، ومعه ثلاثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر[٧].

(١) صحيح إليه: الطبري (٢٠/ ١١٤) في تفسيره.

(٢) كذا في السابق (٢٠/ ١١٤)، وانظر: ابن أبي حاتم (١١/ ٣٥٦) في تفسيره.

(٣) حسن إليه: ابن أبي حاتم (١١/ ٣٥٨) في تفسيره.

(٤) هذا قول ابن جريج معلقًا عند الطبري (٢٠/ ١١٥) في تفسيره.

(٥) حسن إليه: الطبري (٢٠/ ١١٥) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١٧٨٨٥) في تفسيره.

(٦) صحيح إليه لكنه رواه بلاغًا: الطبري (٢٠/ ١١٥) في تفسيره.

(٧) سبق تخريجه.

وقال ابن زيد: خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفَرات[١]. الكلبي: خرج في ثوب أخضر كان الله أنزله على موسى من الجنة فسرقه منه قارون[٢]. وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: كانت زينته القِرْمز.

قلت: القِرْمز: صبغ أحمر مثل الأُرْجُوان، والأُرْجُوان في اللغة صبغ أحمر؛ ذكره القشيري.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي نصيب وافر من الدنيا. ثم قيل: هذا من قول مؤمني ذلك الوقت، تمنوا مثل ماله رغبة في الدنيا. وقيل: هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها، وهم الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم أحبار بني إسرائيل قالوا للذين تمنوا مكانه: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني الجنة ﴿لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ أي لا يؤتى الأعمال الصالحة، أو لا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله. وجاز ضميرها لأنها المعنية بقوله: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ قال مقاتل: لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل: إنما أهلكه ليرث ماله؛ لأنه كان ابن عمه؛ أخي أبيه، فخسف الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام، فأوحى الله إلى موسى إني لا أعيد طاعة الأرض إلى أحد بعدك أبداً. يقال: خَسَف المكانُ يخسف خُسوفاً ذهب في الأرض وخَسَف الله به الأرض خَسْفاً أي غاب به فيها. ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ وخَسَف هو في الأرض وخُسِف به. وخسوف القمر كسوفه. قال ثعلب: كَسَفت الشمسُ وخَسَفَ القمرُ؛ هذا أجود الكلام. والخسف النقصان؛ يقال: رضي فلان بالخسف أي بالنقيصة. ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي جماعة وعصابة. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ لنفسه أي الممتنعين فيما نزل به من الخسف. فيروى أن قارون يَسفُل كل يوم بقدر قامة، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى نفخ إسرافيل في الصور؛ وقد تقدّم؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي صاروا يتندمون على ذلك التمني و﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾ «وي» حرف تندّم. قال النحاس: أحسن ما قيل في هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائي إن القوم تَنبّهوا أو نُبِّهوا؛ فقالوا «وَيْ»، والمتندم من العرب يقول في خلال تندّمه «وَيْ». قال الجوهري: «وَيْ». كلمة تعجب، ويقال: وَيْكَ ووَيْ لعبد الله. وقد تدخل وَيْ على كأن المخففة والمشدّدة تقول: ويكأن الله. قال الخليل: هي مفصولة؛ تقول: «وَيْ» ثم تبتدئ فتقول: «كَأَنَّ». قال الثعلبي: وقال الفرّاء: هي كلمة تقرير؛ كقولك: أما ترى إلى صنع الله وإحسانه؛ وذكر أن أعرابية

(١) حسن إليه: الطبري (٢٠/ ١١٥) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٣٥٩) في تفسيره.
(٢) ضعيف جدًا: الطبري (٢٠/ ١١٥) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١١/ ٣٥٧) في تفسيره.

قالت لزوجها: أين ابنكَ وَيْلك؟ فقال: وَيْ كأنّه وراء البيت؛ أي أما ترينه. وقال ابن عباس والحسن: ويك كلمة ابتداء وتحقيق تقديره: إن الله يبسط الرزق. وقيل: هو تنبيه بمنزلة ألا في قولك ألا تفعل وأمَّا في قولك أما بعد. قال الشاعر:

سـالتَاني الطـلاقَ إذ رأتَـاني　　قَـلَّ مـالي قد جئتُمـاني بِنُكْرِ
وَيْ كَأَنْ مَنْ يكُنْ له نَشَبٌ يُحْبَـ　　ـبْ وَمَنْ يَفتقرْ يَعشْ عيشَ ضُرِّ

وقال قُطْرُب: إنما هو ويلك وأسقطت لامه وضمت الكاف التي هي للخطاب إلى «وَيْ». قال عَنترة:

ولقد شفَى نفسي وأبرأ سُقْمَها　　قَوْلُ الفوارسِ وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ

وأنكره النحاس وغيره، وقالوا: إن المعنى لا يصح عليه؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحداً فيقولوا له ويلك، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر. وأيضاً فإن حذف اللام من ويلك لا يجوز. وقال بعضهم: التقدير ويلك اعلم أنه؛ فأضمر اعلم. ابن الأعرابي: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾ أي اعلم. وقيل: معناه ألم تر أن الله. وقال القتبي: معناه رحمة لك بلغة حِميْر. وقال الكسائي: وَيْ فيه معنى التعجب. ويروى عنه أيضاً الوقف على وَيْ وقال كلمة تفجّع. ومن قال: ويك فوقف على الكاف فمعناه أعجب لأن الله يبسط الرزق وأعجب لأنه لا يفلح الكافرون. وينبغي أن تكون الكاف حرف خطاب لا اسماً؛ لأنّ وَيْ ليست مما يضاف. وإنما كتبت متصلة؛ لأنها لما كثر استعمالها جعلت ما بعدها كشيء واحد. ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ وقرأ الأعمش «لَوْلاَ مَنُّ اللَّه عَلَيْنَا». وقرأ حفص: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ مسمّى الفاعل. الباقون: على ما لم يسم فاعله[1] وهو اختيار أبي عبيد. وفي حرف عبد الله «لاَنْخُسِفَ بِنَا» كما تقول انطلق بنا. وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصرِّف. واختار قراءة الجماعة أبو حاتم لوجهين: أحدهما قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾. والثاني قوله: ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فهو بأن يضاف إلى الله تعالى لقرب اسمه منه أولى. ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ عند الله.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ يعني الجنة. وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها. يعني تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ﴾ أي رفعة وتكبراً على الإيمان والمؤمنين ﴿وَلا فَسَادًا﴾ عملاً بالمعاصي. قاله ابن جريج ومقاتل[2]. وقال عِكْرمة ومسلم البَطين: الفساد أخذ المال بغير حق[3]. وقال الكلبي الدعاء إلى غير عبادة الله. وقال يحيى بن

---

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥٦).

(٢) حسن إلى ابن جريج: الطبري (٢٠/ ١٢٢) في تفسيره.

(٣) حسن إلى عكرمة: الطبري (٢٠/ ١٢٢) في تفسيره، ورواه صحيحًا، عن مسلم البطين أيضًا.

سلام: هو قتل الأنبياء والمؤمنين. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال الضحاك: الجنة [١]. وقال أبو معاوية: الذي لا يريد علواً هو من لم يجزع من ذلّها، ولم ينافس في عزّها، وأرفعهم عند الله أشدّهم تواضعاً، وأعزّهم غداً ألزمهم لذلّ اليوم. وروى سفيان بن عُيَيْنة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مرّ عليّ بن الحسين وهو راكب على مساكين يأكلون كسراً لهم، فسلّم عليهم فدعوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ ثم نزل وأكل معهم. ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني. فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم. خرّجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثني أبي، قال حدّثنا سفيان بن عُيَيْنة. فذكره. وقيل: لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب. والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من اتقى، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لا له؛ لأنها تضره ولا تنفعه.

قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ تقدّم في «النمل»[٢]. وقال عكرمة: ليس شيء خيراً من لا إله إلا الله. وإنما المعنى من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير[٣]. ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي بالشرك ﴿فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي يعاقب بما يليق بعمله.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ختم السورة ببشارة نبيه محمد ﷺ بردّه إلى مكة قاهراً لأعدائه. وقيل: هو بشارة له بالجنّة. والأوّل أكثر. وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد[٤] وغيرهم. قال القتبي: معاد الرجل بلده؛ لأنه ينصرف ثم يعود. وقال مقاتل: خرج النبيّ ﷺ من الغار ليلاً مهاجراً إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها، فقال له جبريل إن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ

---

(١) وهو قول قتادة أيضًا، وعن عكرمة، كما عند ابن أبي حاتم (١١/ ٣٧٥) في تفسيره.

(٢) عند الآية (٨٩).

(٣) لم أجده مسندًا: النحاس (٣/ ٢٤٤) في إعراب القرآن.

(٤) القول بأنه عائد إلى مكة ﷺ: حسن إلى ابن عباس، وصحيح إلى مجاهد، كما عند الطبري (٢٠/ ١٢٥) في تفسيره، وهو قول عكرمة أيضًا.

أما قوله: هو بشاره له بالجنة: فضعيف. كما عند الطبري (٢٠/ ١٢٤) في تفسيره.

﴿الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي إلى مكة ظاهراً عليها [١]. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالجُحفة ليست مكية ولا مدنية. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلى الموت[٢]. وعن مجاهد أيضاً وعكرمة والزهري والحسن: إن المعنى لرادّك إلى يوم القيامة[٣]؛ وهو اختيار الزجاج. يقال: بيني وبينك المعاد؛ أي يوم القيامة؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء و﴿فَرَضَ﴾ معناه أنزل. وعن مجاهد أيضاً وأبي مالك وأبي صالح: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلى الجنة[٤]. وهو قول أبي سعيد الخدري وابن عباس أيضاً؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء[٥]. وقيل: لأن أباه آدم خرج منها. ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ﴾ أي قل لكفار مكة إذا قالوا: إنك لفي ضلال مبين ﴿مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أنا أم أنتم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي ما علمت أننا نرسلك إلى الخلق وننزل عليك القرآن. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الكسائي: هو استثناء منقطع بمعنى لكن. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي عوناً لهم ومساعداً. وقد تقدّم في هذه السورة. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ يعني أقوالهم وكذبهم وأذاهم، ولا تلتفت نحوهم وامض لأمرك وشأنك. وقرأ يعقوب: «يَصُدُّنَّكَ» مجزوم النون. وقرئ: «يُصِدُّنَّكَ» من أصدّه بمعنى صدّه وهي لغة في كلب. قال الشاعر:

أُنَاسٌ أصدوا الناسَ بالسيف عنهم صُدُودَ السَّوَاقِي عن أنوف الحَوَائم

﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى التوحيد. وهذا يتضمن المهادنة والموادعة. وهذا كله منسوخ بآية السيف[٦]. وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله ﷺ إلى تعظيم أوثانهم، وعند ذلك ألقى الشيطان في أمنيته أمر الغَرَانيق على ما تقدّم[٧]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا تعبد معه غيره فإنه لا إله إلا هو[٨]. نفي كل معبود وإثبات لعبادته. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال مجاهد: معناه إلا هو وقال الصادق: دينه. وقال أبو العالية وسفيان: أي إلا ما أريد به وجهه؛ أي ما يقصد إليه بالقربة[٩]. قال [الشاعر]:

أستغفرُ اللَّهَ ذنباً لستُ مُحْصِيَه ربَّ العباد إليه الوَجْهُ والعملُ

وقال محمد بن يزيد: حدّثني الثوري قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فقال: إلا جاهه[١٠]، كما تقول لفلان وجه في الناس أي جاه. ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ في الأولى والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قال الزجاج: ﴿وَجْهَهُ﴾ منصوب على الاستثناء، ولو كان في غير القرآن كان إلا وجهه بالرفع، بمعنى كل شيء غير وجهه هالك كما قال [عمرو بن معدي كرب]:

وكلُّ أخٍ مُفارقُهُ أخوه لَعَمْرُ أبيكَ إلاّ الْفَرْقَدَانِ

والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بمعنى ترجعون إليه.

(١، ٣) ضعيف: ارسله مجاهد، وانظر: الطبري (٢٠/ ١٢٣) في تفسيره.

(٢) حسن: وقد سبق. (٤) انظر: الطبري (٢٠/ ١٢٣) في تفسيره.

(٥) حديث ابن عباس رضي الله عنهما سبق تخريجه، وروايته إلى أبي سعيد رجالها ثقات كما في مسند أبي يعلى (١١٣١).

(٦) لا أرى هنا صحة دعوى النسخ، فالسيف يرفع في حالات معروفة، والدعوة قائمة حتى إذا احتاجت رفع السيف، والله أعلم.

(٧) قصة باطلة: وسبق تفنيدها. (٨) ضعيف: ابن أبي حاتم (١١/ ٣٨٢) في تفسيره.

(٩) انظر السابق. (١٠) معاني القرآن (٣/ ٢٤٤) للنحاس.